ضباب في عيون الأمل

(رواية)

معين عيسى

مكتبة شغف

shaqhaf.com

الإهداء:

إلى: محمود

(رياض منصور)

عاد صديقي عبد الحميد من الداخل نحوي حيث كنت أتواجد في المجلس بمنزلهم. وقف في الردهة الصغيرة قبالة باب المجلس وقال لي: لقد نسينا الخبز؛ لحظات أخرج إلى المخبز وأعود سريعاً. ذلك حين كنت ضيفاً عنده للمرة الأولى، بعد أن عزمني بإصرار وأقسم على أن أتناول الغداء عنده. شعرتُ بحرج من بقاءي وحيداً، وفضلتُ أن أخرج معه لأي سبب فقلت وأنا أهم بالنهوض: انتظر سأخرج معك أريد أن أشتري كرت شبكة نت وأشياء أخرى.

أشار نحوي بيده لأبقى جالساً وقال: كل شيء موجود؛ معنا نت في البيت لا تقلق، وإذا تحتاج أي شيء آخر قل لي وأنا أجلبه معي الآن. ثم أضاف على عجالة: أو اعمل لي رسالة نصية.

قال لي ذلك، وانتعل حذاءه بسرعة وانطلق خارجاً. شعرتُ بحرج شديد إذ أنني في تلك اللحظة وجدتُ نفسي وحيداً في مجلس البيت، فحاولتُ الانشغال بهاتفي الجوال، وبينما أنا على ذلك الحال محاولاً استنفاد تركيزي في الهاتف، إذ أحسست بشبح امرأةٍ تقف باب المجلس، فأحسستُ بقلبي يهبط، وساقي تثلج. اجتهدتُ ألا أرفع نظري، فإذا بي ألمح تحركها من دون أن أرفع رأسي، لقد دخلتْ من باب المجلس وعبرتْ إلى داخله ثم مالت إلى الزاوية وانحنت لتأخذ رقعةً كانت بجانب التلفاز، وأخذتْ كذلك مكنساً صغيراً كان يتواجد هناك .

كنتُ إلى هذه اللحظة أظن أن خيالات تلعب بعقلي، واطمأننتُ إلى أنها لن تراني إن رفعت بصري نحوها لأتأكد من وجودها أحقيقةٌ هو أم خيال، فوجدتُها فعلاً، في لمحة خاطفة.

امرأة في ريعان شبابها أو قل فتاة كبيرة بعمر طالبة جامعية ذات جسم رشيق مرصوص، كانت تلبس ثياب العمل المنزلي؛ روب نصف كم لونه منقط بالأبيض والأزرق، يظهر ذراعين أبيضين رخصين، وكانت قد ثنت الروب وربطته في خصرها ليكون امتداده فقط إلى تحت ردفيها مطمئنة إلى ارتدائها ثوباً داخلياً أملساً

لونه رمادي يصل طوله إلى منتصف ساقها، أما رأسها فكان مغطى من فوق أذنيها فأعلى بطرحة بيضاء شد بها أعلى الرأس في حين تُرِك العنقُ مكشوفاً. ما إن تأكدتُ من أني أشاهدها حتى دهمتني موجة جديدة من الفزع والخوف والارتباك، وتمنيت لو أني أستطيع الامحاء من المكان برمته. نحن في مجتمع يمني، من متى تظهر النساء أمام الضيوف؟! ما بالها هذه المجنونة؟ ألا تعلم أني داخل، أليست هي من أبلغ صديقي أن عليه الذهاب لجلب خبز؟! وإذن فهي تعلم أن الضيف متواجد في المجلس! كيف تقفز هكذا، ألم تر أمامها رجل جالس؟ أيعقل أنها لم ترني؟ لكني لستُ إبرة حتى أُخفى عن ناظريها، إني موجود بكل كياني وهي تعلم ذلك، فلماذا دخلت عليّ هذه الدخلة؟

وشعرتُ بحرج شديد، ماذا لو دخل صديقي وهي هنا في المجلس وبهذه الهيئة والمنظر! ما الذي أتى بي إليهم! كان خطأ فادحا حين قبلتُ الدعوة، لو توقعتُ ذلك ما قبلتها ولو أقسم علي صديقي بأغلظ الأيمان .اذهبي يا امرأة عودي لمطبخك هداك الله، هيا بسرعة قبل أن يعود عبد الحميد.

وعدتُ للانهماك بهاتفي، أما هي فقد بقيتْ على ذلك الوضع بضع ثوان، وحين بدى عليها أنها قد أخذتْ حاجتها، قلتُ "الحمدالله الآن ستنصرف"، فإذا بها تتوجه نحو صفيف على الجدار في زاوية المجلس وتمط رأسها إليه وتبحث عن لا شيء أما أنا فقد كنتُ أحس أن جسمي صار بركة من العرق. كان يشكل المجلس مع غرفة أخرى الحرف الإنجليزي إل بينهما المدخل الذي يفضي للردهة الصغيرة، وكان البيت يرتفع عن الحوش بمقدار درجتين عند المدخل، وللمجلس نافذة ناحية بوابة المنزل الخارجية فيستطيع الجالس في مكاني أن يرى دخول أحدهم من باب الحوش. سيأتي عبد الحميد الآن سأراه عند دخوله، لكنها لن تراه، ستظل هكذا حتى يدخل فيجدها عندي بالمجلس. اذهبي يا امرأة، أحدث نفسي ماذا تفعلي هنا، هل أتنحنح لكي أشعرها بوجودي؟

ولكني أكاد أقسم أنها تعرف بوجودي، لن أعطيها أية إشارة، سأعتبر نفسي لم أر شيئاً، وسمعتُ فتحة البوابة ووقع خطوات عبد الحميد على حصى الحوش عند دخوله، وهنا غاص قلبي، وأحسستُ بجسمي يثقل ولساني ينحبس.

ستحرجني المتهورة هذه؛ غير أنها في ذات التوقيت انطلقتْ وغادرتْ المجلس مسرعة. لعلها أدركتْ أن الرجل قد عاد من المخبز؛ فانطلقتْ مسرعةً قبل أن يدخل.

أياً كان الأمر، الحمدالله أنها ولّتْ قبل أن يجيء.

دخل وخلع نعليه وقال: المعذرة تأخرنا عليك.

فقلت: لا مشكلة؛ أوقات الانتظار فرصة للرد على الرسائل؛ لقد كان لدي رسائل كثيرة على الواتساب .

ودخل نحو الصالة ليستكمل تحضير الغداء. حين عاد نهضتُ وخلعتُ جاكتي وأخذت أشمر عن أكمام قميصي قلت: نريد أن نصلي.

فأجاب مستنكراً: ليش ما صليت واستغليت الوقت. ثم أضاف باقتضاب: خذ راحتك ما أحد هنا، البيت بيتك .

لقد هوجمتُ إلى مجلسي فكيف لو تحركتُ أكثر، مسكين لا يعلم أنه لم يعد من المخبز إلا وقد أوشكتْ أنفاسي على التوقف. حين صرت في الحمام فتحتُ الحنفية واستغرقتُ في التكفير محاولاً إيجاد تفسير لما حدث، وقطع تفكيري امتلاء الدلو بالماء وتدفقه إلى الأرض .

تناولنا الغداء وجلسنا نشرب الشاي. وأثناء ذلك قال: ما رأيك هل يكون المقيل هنا أم خارج؟

فبادرتُ للقول: بل خارج أفضل.

لقد كنتُ أتحيّن الفرصة للنفاذ بجلدي من البيت. إني أكاد أطير خارج البيت، لأفسر وأفهم ما جرى!

كنت خلال تناول الغداء أهم بطرح اسئلة على صديقي؛ أسئلة غير مباشرة لعلي أفهم من إجاباته من يتواجد داخل البيت؟ هل هناك أطفال، هل هناك نساء كم عددهن. اغلب الظن أن تلك الفتاة التي دخلت للمجلس تتواجد في البيت بمفردها، وإلا لما دخلتْ هكذا بكل استرخاء وطمأنينة. ولكن من هي؟ وتراجعتُ عن أسئلتي؛ إذ أن أي سؤال قد لا

يكون غير مباشر بما يكفي، وقد يسبب حرجاً لصديقي أو لي، وآثرت ألا أسأله، وأن تكون الأولوية للخروج من البيت، أهم شيء ألا نتناول القات في بيته.

هل هي زوجته؟ لو كانت كذلك فلماذا تفعل هكذا؟ ألا تحترم زوجها وأصدقاءه، أليس هذا تفريط بحقوق الزوج! لا يوجد زوج يقبل هذا التصرف من زوجته تجاه أصدقاءه، على الأقل في مجتمعنا هذا.

قضيتُ يومي مشوس الفكر مشتت الاحتمالات، حتى المقيل تمنيتُ أن ينتهي بسرعة لأرجع للبيت. وفي الثلاثة الأيام التالية وبعد طول تفكير أقنعتُ نفسي أنها حادثة عرضية وقعتْ وانتهى الأمر؛ كلما أنا متأكد منه أني لن أذهب لمنزل عبد الحميد مرة أخرى.

وبينما أنا كذلك إذ جاءني عبد الحميد وقال: اليوم لدينا عمل يحتاج جلوس وفراغ والوقت أمامنا، سنخرج من هنا على السوق نشتري قات ثم نتغدى في البيت ونخزن لكي ننجز ونوفر الوقت.

نحن زملاء عمل نعمل سوياً في الهيئة العامة للبريد، كان منزلهم في الحصبة، أما أنا فكنت أسكن ببيت عمي في منطقة شميلة، تحديداً خلف مستشفى الخزان، وسكني مكون من غرفة واحدة ملحقة بالمجلس، وإذن فمنزل عبدالحميد قريب من مقر العمل، على عكس سكني الذي يعتبر الأبعد، ولذا فقد كانت حجة كافية لإسكاتي دون أية محاولات للتملص؛ لكنه لا يعلم أنه صار لدي مشكلة وفوبيا من منزلهم! لن أذهب، لن يتكرر الموقف، أخاف أن يحدث شيء كالذي حدث سابقاً. لم يمر على الموضوع سوى أربعة أيام. اعتذرتُ وتهربتُ بشتى الأعذار، ولم يقتنع صديقي بأعذاري وأبدى تعجبه من رفضي؛ لكنه ما كان ليجبرني وسط نبرة الرفض الشديدة والواضحة؛ فترك الأمر، وحمدتُ الله إذ يئس مني عند هذا الحد.

في الخامسة مساء من ذلك اليوم تلقيتُ رسالة نصية من رقم ليس في سجل هاتفي، كتبَ فيها: لماذا لم تأتِ اليوم؟

أجبتُ: من أنت؟ وأين آتي؟

رد: لماذا لم تأت بيت صاحبك عبد الحميد؟

قلت: لكنك لم تعرفني بنفسك؟

أجاب: الآن كمل مقيلك وافتهن، لنا تواصل لاحقاً .

أرسلت علامة استفهام وتعجب؟!؟! فلم يعقب .

في الساعة الحادية عشرة مساءً كنت فاتحاً واتساب فوجدتُ ذات الرقم الذي راسلني في العصر وقد دخل معي في محادثة، وكان قد كتب مساء الخير كيف أنت؟ ليش ما جيت اليوم عندنا؟

كتبتُ وقد انتابني قلق عجيب :

- من؟

أجاب: تريد أن تعرف من؟

فرددتُ: بالتأكيد، ولن أتكلم أكثر من هذا قبل أن أعرف هوية من يحدثني .

بعد دقيقة وصلتني رسالة مكونة من صورة وتحتها تعليق كتب فيه "أنا من التقط لك هذه الصورة."

قطّبتُ بين عيني وفتحت الصورة بسرعة، فوجدتُها صورة لشخص يجلس وبيده هاتفه، خلفه نافذة وعلى يساره نافذة، يا إلهي من هذا؟ المكان مجلس صديقي عبد الحميد وهذا الذي في الصورة هل هو... لا لا يعقل، قرّبتُ الصورة، رباه إنه أنا، إنها صورتي، ما الذي يجري؟

تظاهرتُ بأني لم أعرف وكتبتُ:

من هذا؟

وصلني الجواب: حقا لم تعرفه؟ قرّب اللقطة وسترى نفسك.

أرسلتُ علامة تعجب؟؟ ثم: من الذي صورني ولماذا؟

- أنا الذي صورتك؟
- من أنت ولماذا؟
- هكذا صورّتُك مزاج، أعجبني تواجدك وحيداً، دفعني الفضول لتصويرك. وأعتقد أنك تعرفني .
- لا أعرف أحد .
- بل تعرف .

مباشرة قمتُ بحظر الرقم، وألقيتُ الهاتف جانبا .هذه الزاوية التي تم تصويري منها توحي بأن اللقطة جاءت من الداخل، فهي لقطة بعيدة تظهر فيها الصالة الصغيرة التي تحوي الأحذية بباب المجلس في منزل عبد الحميد. ما هذا؟ ما قصة منزل صديقي هذا؟

رنَّ هاتفي بجانبي مُوذناً بوصول رسالة نصية، اهتز نبضي وجَلاً." إنها من ذات الرقم" قلت ذلك في نفسي قبل أن أفتح الشاشة، وكان ما توقعت:

- معقول خوّاف للدرجة هذه؟ لا تخف لا يوجد ما يدعو للخوف .

لم أرد على الرسالة وأخذتُ أقلّب هواجسي، فإذا برسالة ثانية: لو تحدثت معي لعرفتك بنفسي، لست ممتنعة عن ذلك، لكنك تسرعت في الحظر. لمحتُ ضمير المتكلم المؤنث فانقبض قلبي.

ليس من منزل صديقي، لو كانت مجهولة لغازلتُها وليكن ما يكون، ولكن كل المؤشرات تدل على أن الشخص الذي التقط الصورة من هناك، وهذا شيء لا أريده ولا أرحب به، بل هو مدعاة للنفور. يا الله خارجنا، كيف يفكر هؤلاء النسوة؟! عبد الحميد صديقي وأخي كيف لي أن أتحدث لأحد من أهله من ورائه! استغفر الله العظيم. وأنشأتُ أبحث عن زر الحظر على مستوى الرسائل والمكالمات لأبعد نفسي عن كل شبهة، وقبل أن أنجز ذلك وصلتْ رسالة ثالثة :

- الحظر ليس من وسائل الشجعان، اترك الباب مفتوحاً للنقاش، وأعدك ألا يحدث شيء ضد رغبتك .

قمتُ بإلغاء الحظر عن الواتساب، لا لشيء، ولكن لأني بالفعل أريد أن أعرف ما الذي يجري، ما القصة؟ مع أن قيامي بهذا كان مصحوباً بشعور ازدراء ذاتي وقلق، فمهما كان مستوى فضولي فإني أنفر من فكرة وجود محادثة ولو رغما عني بيني وبين امرأة من أهل صديقي عبدالحميد، محادثة من وراء ظهره، هي في نظري خيانة مني حتى وإن فُرضت علي .

فتحتُ الواتس فوجدتها قد أرسلت عدداً من الصور التي تجمعني بعبد الحميد وعدد من الزملاء آخرين، وقد وضعتْ على صورتي دوائر حمراء، وقالت: هذا أنت صح؟

زدا قلقي أكثر لما رأيت، فكتبتُ بنبرة احتجاج: طيب وماذا بعد؟

فجاء الرد: ولا شيء .

قلت: ما معنى هذا؟

- بإمكانك أن تعتبر أن ليس له معنى إذا كان ذلك يريحك، أما أنا فإن له معنى عندي أحتفظ به لنفسي

قلت: هلا احتفظت بالأمر برمته لنفسك؟ فلا داعي لمراسلتي واطلاعي على الصور، ثم لماذا هذه الدوائر الحمراء المقيتة التي تضعيها حول صورتي؟

أجابت بضحكة: ههhe

فأجبتها إنك تجعليني أشعر وكأني مطلوب للعدالة. احذفي هذه الصور لو سمحتِ، ولا تضعي علامات حمراء .

كانت العلامات الحمراء هذه قد استفزتني بالفعل، وكرهتُ أن يقوم شخص بالتطفل على هذا النحو أيا كان .

- حاضر ولا يهمك .

- ثم عرفي بنفسك إن كنتِ صادقة وإلا فلن أضيف حرفاً واحداً .

وفجأة قالت: عفواً لحظة مضطرة أغلق الآن.. أكلمك وقت ثاني، آسفة لكن مضطرة أغلّق sorry ..

ثم أُغلقتْ المحادثة، وأغلقتُ أنا أيضا. واستلقيتُ.

"يلعن شكلك يا بليدة، ماذا تريدي مني؟ أقلقتِني ."

حظر من جديد، هذا أحسن حل فيما يبدو، لا تفتح أبوابك لكل من هب ودب، الله وحده يعلم إلى أين يمكن أن يصل مثل هذا التساهل مع هذه الشخصيات.

في اليوم الثاني أرسلتْ: ألم نقل لا داعي للحظر، يجب التحلي بالشجاعة، الحظر ليس سلاح الأقوياء الواثقين من أنفسهم لعلك تعرف ذلك أستاذ رياض.

"ويل للرجل من امرأة وضعته في رأسها"

كتبتُ: أيش المطلوب؟

وأنعمتُ النظر لرسالتي هذه، فطرأت لي فكرة أن أنسخها وأحفظ الرقم في سجل الهاتف وأسميه بها، وحفظتُ هاتفها بهذه التسمية (أيش المطلوب) لكي تظل في نظري موضع مسائلة، ولكيلا يأخذ الأمر منحى طبيعياً. يجب أن يظل التوجس هو أساس كل كلمة تأتي من هذا الرقم، أو تُكتب إليه.

قالت: يا أخي الذي سمعته عنك يوحي بشخصية أخرى منفتحة، مالك هكذا محبكها؟ قلنا لك اترك الباب مفتوح، ونعدك بأن لا تجد شيئا ضد رغبتك .

قلت: - ولكن ما يجري كله ضد رغبتي.

قالت: - هذا في البداية، لأنك لم تترك فرصة للكلام .

- وما الهدف من الكلام؟
- الهدف منه تبديد مخاوفك.

- ليس لدي مخاوف سوى إزعاجك هذا .
- لك الأمان من ناحيتي .

من أين يأتي الأمان مع النساء؟ إن كانت امرأة فعلا؟! إلى أين تود الذهاب بي هذه المجنونة، من هي؟

قد لا تكون امرأة، قد يكون مقلب صديق! سأكون في غاية السعادة لو كان الأمر كذلك فعلاً، المهم ألا يكون حقيقة، لا أريد أن يكون الأمر كما تقول، إنها تلمح إلى أنها امرأة تنتمي لعائلة عبدالحميد، وهذا هو السيناريو الذي أتمنى من أعماقي أن لا يحدث .

- لن أضيف كلمة أخرى قبل أن تعرف بنفسك .

وقد تعمدتُ استخدام ضمير المخاطب المذكر لألمّح إلى أني ما زلت غير موقن بالجنس والهوية.

لم يأتِ ردٌ! نفَسٌ طويل، وأسلوب احترافي، صاحب هدف مدروس، لديه أناة وسعة بال، ماض في خطة مرسومة، ليست عشوائية. لم يرد، مرت يومان، وبينما كنا في مقيل جماعي، طلب مني عبد الحميد هاتفي ليجري مكالمة نظراً لنفاد رصيده، كنت قد شحنت رصيداً للتو أمامه قبل دخولنا مكان المقيل فلم أسطع التهرب منه بافتعال كذبة من قبيل أن رصيدي قد نفد. سلّمتُ له الهاتف وأنا في حالة من القلق شديدة. كان جالسا على الجانب الآخر من المجلس قبالتي حوله زملاء وحولي زملاء، أدخل رقم وضغط زر الاتصال، وسمع الرد الآلي أن الهاتف مغلق، ثم نظر في الشاشة فقطب بين حاجبيه ومال برأسه قليلاً إلى الوراء، بينما أرقب ملامحه متوسلاً إلى السماء أن تنتهي المصادفة السخيفة المحتملة على خير .مط شفاهه وأدار الهاتف ليريني وقال مستفسراً بتعجبٍ: أيش المطلوب؟

ادّعيتُ الجهل ورددت بعده نفس الجملة التي قالها.

قال: الرقم محفوظ عندك؟

والتفتَ الجميع نحوه ونحوي .

قلتُ: أي رقم؟ لا.

قال: محفوظ باسم بهلواني (أيش المطلوب)

نهضتُ وطرت نحوه، أخذتُ الهاتف من يده وقلتُ: لعل هناك خطأ لا يوجد لدي رقم بهذا الاسم! معقول. ووقفتُ فوق رأسه وفتحتُ سجل الهاتف ومسحت السجل بأكمله في لحظة ارتباك شديدة، وأنا أقول: لعل هناك خطأ ما. ومن ضغطة لأخرى، وللخروج من هذه الورطة المحرجة قمت بالتضحية بسجل الهاتف كاملا والذي يحوي آلاف الأرقام .ثم وضعت الهاتف في المدكى الذي يتكئ عليه بحركة توحي بعدم اكتراث، وكأني أعيده له أو لا أمنعه من معاودة النظر إليه أو حتى استخدامه للاتصال مرة أخرى. وضعته وقلت: ما أدري كيف! وعدتُ للجلوس في مكاني .

فعل خيراً حين لم يأخذه مجددا، بل تركه قليلاً ثم نهض وتقدم نحوي وأعاد لي هاتفي، أما انا فشعرت أني ابتلعت حجراً، وانحسر مزاجي بقية يومي ذاك .هذا ما كنا نخشاه، كان يجب ألا أحفظ رقم الهاتف السخيف ذاك. كيف انعقد لساني قد كنتُ على وشك أن أسأله رقم من هذا الذي أراد الاتصال به، بمن كان يود الاتصال؟ من الجيد أني لم اسأله، كان يمكن أن يكون الجواب صادماً وأمام الجميع .

ولكن هل تفاجأ بوجود الرقم في هاتفي حقاً؟ أم أنه أراد التأكد من شيء في نفسه؟

هل صار يشك بي؟ كلها مسائل حساسة، ما أجدر بنا الابتعاد عنها .

- لقد تسببت لي بموقف محرج مع صديقي لا أعلم كيف ستكون تبعاته، ولذا فأرجو أن تتوقف عن مراسلتي، وأما إذا ألزمتُ نفسي بواجب التهذيب فإني أطلب منك أن تعرف بنفسك وغرضك. وإلا فلا تواصل بيننا.

تلك رسالة نصية بعثتُها على عجالة فور خروجي من المقيل عند المغرب، فجاء الرد: تمام موافقة سأعرفك من أنا. افتح الواتس.

فتحتُه فوجدت صورة مذيلة بتعليق: أنا هذه .

امرأة واقفة تم التقاط صورتها من ناحية الخلف، وهي تمد يديها لصفيف في الجدار عند الزاوية، ترتدي روب نصف كم معطوف عند الخصر وتحته بجامة رمادي ....

حاولتُ التظاهر بعدم المعرفة وقلتُ: من هذه؟

قالت: هل تنكر أنك لم تر هذه من قبل، ألم يمر بك هذا؟

قلت :إن كيدكن عظيم .

قالت: ولن يتوقف حتى نتفاهم

- على ماذا نتفاهم؟
- على الهوى والقلوب .
- يشلوكِ الجن .هوى أيش وقلوب أيش يا بنت عيب.
- أيش العيب؟
- مجرد حديثي معك يعد خيانة لعبد الحميد.
- لا تقلق من هذا. عبد الحميد أخي طيب ورجل واعي متفهم، وأنا مستعدة أكلمه إني أراسلك وأذكرك أنه لن يغضب، لسنا عائلة متزمتة .
- بماذا تكلميه يا مغفلة؟ لا تكلميه. يعني أنتِ أخته.
- طبعا.
- ظننتك زوجته.
- لا.. كذا فعلا يكون عيب. خلاص طالما عرفت أني أخته، اطمئن .
- ما اسمك يا صياط؟
- ههههه صياط مرة واحدة. طيب أمل، اسمي أمل.

وضعتُ إشارة رد على الصورة التي أرسلتها والتي تبدو فيها واقفة وكتبتُ:

- بالنظر لهذه المواصفات فأظن أن أمل يعد اسماً مناسبا .
- من أي ناحية؟
- لا أدري لكن يبدو فيه تناسب بين الاسم والشكل، كأن كل منهما يستحق الآخر .
- يعني فيه أمل نتفاهم؟ طمئني؟

ويل للرجل من امرأة وضعته في رأسها. الله يستر .هل كنت غير موفق بنبرتي الأخيرة معها، إنها نبرة لينة؛ ستفهم من ذلك أني بت راضياً، وأنه ضوء أخضر. كان يجب أن استمر في حديثي معها بنفس لهجة الصدود.

طردتُ الهواجس من رأسي، واسترخيت، وفتحت أغنية فيروز "عودك رَنّان" لا أمل من سماعها.

بين الطرب والجمال خيط يصعب تجاهله. مرت ربع ساعة قبل أن يعيدني الفضول لفتح الصورة، ما التفاصيل التي حال الارتباك دون رؤيتها في ذلك اليوم، الفضول سلطان، فكيف حين نكون أمام صورة امرأة، فتحتُ المحادثة ورجعتُ قليلاً باحثاً عن الصورة فوجدتُ أنها قد حذفتها. ذهبتُ لمعرض الصور لعلها هناك، لم تعد موجودة، قد حذفتْها. إنها تختبر فضولي، فليكن، لن أسألها عن هذه الصورة، ولن أذكر حتى واقعة الحذف هذه، سأتجاهل الموضوع تماماً. "الحرب والسلم" أحب إليَّ مما يدعونني إليه، إلى القراءة فإنها منجاة، ومن قرأ الحرب والسلم فكأنما قرأ مكتبة، وكانت له حرزاً من التفاهة. عُد إليها؛ جزؤها الثاني ينتظرك، وإن لدى العم تولستوي ما يُغني عن النساء ويغذي العقل ويهذب الروح.

(أمل خالد)

تعرّفْتُ على رياض منصور من خلال أخي عبدالحميد، كنت في يوم أقوم بتنظيف الصالة فإذا بهاتف عبدالحميد يرن أمام ناظري، أخذته، ووجدت المتصل رياض منصور، أخذت الهاتف وناولت لعبد الحميد الذي كان في المجلس يشرب شايا عقب الغداء، وعدت للصالة لأواصل التنظيف، وتركت الباب مواربا لأسمع حديثهما من باب الفضول، ثم ما لبثت أن قلت لنفسي واضح من لهجة عبدالحميد أن هذا النوع من المكالمات لا يضايق عبدالحميد بخلاف عادته، وها أنا أسمعه يتحدث بسرور ويضحك ويتفاعل مع المتصل لكأنهما في جلسة مباشرة لا مكالمة، كان عبدالحميد يجيب بتلميحات، لكي لا يفهم أحد عم يتحدثون؛ بيد أني كنت أفهم لهجة أخي فأعرف ولو شيئا يسيرا في أي جانب يتكلم مع أي متصل، فضولية بطبعي؛ لكني أعرف كيف أتقنه فلا أبدو متهافتة أمام الجميع، وأساليبي في ذلك الانصات والأسئلة غير المباشرة،

أزعم أني فهمت ما يدور، الأمر الذي زاد من فضولي. يبدو رياض هذا صاحب أخي شاب شقي وخفيف، باين من لهجته، من النقاط التي يثيرها، من الأسئلة التي يطرحها، حتى إنصاته لمحدثه لا يخلو من أناقة .

بعض المكالمات التي يجريها عبدالحميد ما إن ينتهي منها حتى يبادر لإخبارنا بموضوعها وخصوصا تلك التي لا تخلو من نكتة أو من فائدة.

في ذلك اليوم لم يخبرنا، وليس من الذوق أن أسأله بالطبع، غير أنه في تالي الأيام كان يحدثنا، فأخذ يحدثنا عن رياض، وأنا أنهل من أحاديث أخي ما يروي فضولي بالمجان. لو علم الرجل بلهفة نساءه على أحاديثه عن الغير لأخذته الغيرة وتوقف عن كل حديث له صلة بأصدقائه والناس؛ ولكن لتدم علينا هذه النعمة، استمر يا أخي قل كل ما يثير فضول أختك ويشبعه في نفس الوقت .

أحيانا كنت أشعر أن عبدالحميد يروج لصاحبه هذا غير أني تأكدت بطريقتي أن الأمر ليس متعمداً؛ وإنما الأمر صدفة أو هو طبع أخي السمح، فهو طيب والحق يقال وليس فيه التزمّت الذي يُعرف به الأشقاء تجاه شقيقاتهم .

في كل مرة يحدثنا عن أصدقاءه أستخدم أقصى درجات المكر لكي أجره للحديث عن صاحبه رياض، يبدو أني صرت مهووسة بالاستماع لكل شيء له علاقة به .

سألت عبدالحميد:- هل كل أصدقاءك سواء

فأجاب مستفهماً:- كيف سواء ماذا تقصدي؟

قلت: - هل تحب أصدقاءك بنفس القدر أم أنك تفضل بعضهم على بعض.

قال وابتسامة تعلو وجهه:- لكل شخص مكانه الذي لا يملأه سواه، ولكن ما الداعي لسؤالك هذا .

-لا أبداً هكذا فضول .

ثم بعد صمت قصير استأنفت قائلة: مثلاً أشوفك تتحدث مع صاحبك رياض بلهجة مختلفة عن أصحابك الآخرين .

قال: - لأن رياض مختلف عنهم جميعاً .

قال ذلك ثم نظر إلى النافذة وواصل كلامه: - رياض حاجة ثانية، رياض ...

فقاطعته بعبث الفتيات: - أوه بالراحة بالراحة يعني لهذا الحد تحبه .

ويبدو أن مداخلتي لم تلق استحسانا لديه فقال بلهجة من يود إنها الحديث: - على العموم ما علينا، وليس وقت هذه الأمور .

الطرق غير المباشرة هي وسيلتي الناجعة ولن أتنازل عنها، حتى لو جرفني الفضول، وحين يصل الحديث إلى الحد الذي يثير معه شكوك الطرف الآخر أتوقف عن أسئلتي.

لم أضف يومها أي سؤالٍ، غير أن البحث والتصنت استمرا في كل الاتجاهات .

أدركت أني صرت مهتمة لشأن رياض، صرت أحب عبدالحميد أخي أكثر وأحب كل إطلالة يطل بها علينا، وأفرح حين يرن هاتفه، لعل اتصالا من رياض يأتيه، فيتحقق لدي إشباع غريب تعرفه الفتيات فقط .

وفي يوم استرسل عبدالحميد في حديثه عنه، وعدد مزاياه، حتى سال لعابي، وعلى الفور قلت في نفسي مستحيل أن يكون هذا الشباب ما يزال عازباً، ولا بالأحلام، مثل هذا لا يبقى، كم هو مؤسف أن الشباب الرائعين مرتبطين، كم عمره يا ترى؟ ولكن لماذا اليأس من يدري ربما ما يزال عازباً، إنها أضغاث أحلام، احلمي يا أمل، من يدري؟

بلغ بي الفضول مستويات لم أعهدها، حتى دفعني لطرح أسئلة غير مباشرة نسبيا، وكان همي أن أعرف شكله وعمره وهل متزوج أم لا .

فكانت المفاجأة والصدمة اللذيذة، إنه حر وجميل ومهذب، يا إلهي كيف سقط سهوا على بنات حواء!

-هل أنت متأكد يا عبدالحميد إن هذا الشاب ما يزال عازباً .

فلت مني ذلك السؤال بفعل احتقان الفضول، فابتسم عبدالحميد أخي ابتسامة ماكرة وقال:- نعم عازب؟

قلت: - لماذا لم يتزوج حتى الآن .

فأجاب وقد مال نحو لهجة عابثة: - وأنتِ ما شأنك بهذا الأمر، هو حر يتزوج في الوقت الذي يريد؟

قال ذلك والابتسامة لم تفارق شفته حتى عند انتهاءه من الحديث، لم أعلق، ولعله شعر أنه قد كبح الحوار بجوابه، فأضاف قائلاً: - سيتزوج إن شاء الله وأعدك أنه في موعد العرس سأبلغك بالخبر لكي أروي فضولك .

قلت في نفسي: بل سأبلغك أنا، إن كان هذا الشاب غير مرتبط، فلن يفلت مني، حسنا يا عبدالحميد، اسخر مني، ستعرف من تكون أمل. وكأني قد وضعت الشاب في رأسي بصورة قاطعة، كمن أقسم قسما وشعر بوجوب الوفاء به .

لم أكتف بالمعلومات التي حصلت عليها من عبد الحميد فعلى الرغم من وضوحه إلا أنه يمكن أن يمزح في أشياء لا يعلم مدى أهميتها بالنسبة لفتاة، وقد يتسبب لك بجلطة وهو في نظره يمزح، ولذا فقد حرصت على أن أتأكد بنفسي، حضرت كل مناسبة يمكن أن تضم أي امرأة من عائلات الموظفين زملاء عبد الحميد، وفي كل مرة ومع كل واحدة منهن كنت أجري استبياناً شاملاً من بعيد حتى أصل لمعلومة أن رياض فعلاً ما يزال عازباً، يا إلهي كيف هذا؟

أما وكل المؤشرات تؤكد أن الفتى ما يزال حراً فقد آن أوانك يا أمل، هيا كوني جسورة، أرينا براعتك، ماذا أنت فاعلة؟ ولكن إلى أي عالم ينتمي هذا الرجل، كيف يفكر، ما الذي يحبه وما الذي يكرهه، كيف يمكن الولوج إلى شخصيته؟ أظن أن هذا هو أصعب الأسئلة.

وفجأة وقع بين يدي كنز، مسودة بحث رأيتها في سيارة عبدالحميد، ذلك حين أوقف عبدالحميد السيارة ونزلنا بالقرب من سوق القات، ولكي أتغلب على ملل الانتظار مددت يدي لأطلع على مجموعة ورق مصفوفة كأنها ملزمة، أخذتها قلبت جانبها الآخر فرأيت مسودة بحث بعنوان (مراجعات مجتمعية؛ بحث في المعقول واللامعقول في ثقافتنا اليمنية) والباحث رياض منصور، أهو رياض صاحبه؟ يبدو أنه هو، فتحت الصفحة الأولى رأيت ملاحظات مكتوبة بخط اليد فيها آلية مقترحة بالمنهجية المناسبة لعملية المراجعة للبحث، يبدو أن رياض كتبها لعبد الحميد ليراجع في ضوءها، إن كانت له فسيكون كنزاً بمعنى الكلمة، سأعرف من خلالها أشياء وأشياء، ولكن الآن

قومي بإعادتها قبل أن يعود عبدالحميد ويقرصك بواحدة من مشاكساته، لا تنسى أنك الفضولية المعروفة في نظر عبدالحميد، ولن يرحمك بلسانه وإن كان لساناً مازحاً بالطبع. أعدت المسودة، وعدت لانتظاري وأنا على قدر من السرور كبير، حين رجع عبدالحميد وانطلقنا بالسيارة أنشأت أقول: - السيارة صارت مليئة بالغبار، لماذا لا تنظفونها؟ ورحت أمسح بيدي الغبار من بعض الأماكن أمام أعيننا، أريد أن أتحرش بالملزمة هذه أمام أعين عبدالحميد لعله يجود بكلمة عفوية تؤكد شيئاً داخلي، أو تنفيه، أريد أن يتكلم بكرمه الذي أعرفه، فهو ورغم مشاكسته لي أحياناً إلا أنه حين يشعر أن المرأة بحاجة لإشباع فضول ضروري يتحدث بكرم، ويسهب في الحديث، كأنه يجند نفسه لخدمة الغريزة هذه غريزتنا في الفضول، كم أشكره حين أراه وهو كذلك. ليته يفعلها الآن، ولكن ألا يجب عليك أن تنكشيه أولاً، تحرشي بالموضوع بأي كلمة بأي حركة، مدي يدك وحركي هذه الأوراق، ومددت يدي وأزحتها وقلت: - انظر كم تحت هذه الورق من تراب؟ قال وهو منهمك في القيادة دون أن ينظر نحوي: - سننظفها إن شاء الله. وما هذه الأوراق، قلت وأخذت أقلبها بين يدي، فكان جوابه الذي أملت، إنها لرياض فعلاً وهي الآن عهدة عبدالحميد للمراجعة.

تجاهلت الكلام كأنه لا يعنيني وأعدت الأوراق لمكانها وقلت وأنا أعيد جسمي للاستقرار في مكاني: الغبار يبهدل بالسيارات، لازم من النظافة.

لم يرد علي أنا أعرف أنه غير مكترث أو مشغول البال، وقد يمضي الشهر دون أن ينظفها. نزلنا من السيارة وعيني ترمق البحث، هل سيأخذه هل سيتركه في السيارة كما هو؟ لم يأخذه. حسناً. في الرابعة عصراً وعند بدء المقيل، استدعيت ليلى بنت عبدالحميد ذات الستة أعوام وقلت لها: ادخلي لعند أبوك وقولي له يجيب مفتاح السيارة ننظفها له. ذهبت وبقيت خلف باب المجلس استرق السمع ماذا سيقول: - فكان منه أن فرح بهذه المبادرة وقال: - نعم نعم هذا توقيت مناسب شكراً لك أنتي وعمتك، هذا المفتاح ناوليها، ولا تنسوا السيارة مفتوحة عند الانتهاء من التنظيف.

مسودة البحث بين يدي، وقد أعدت النسخة الأصلية للسيارة كما كانت، فقبل أن أعيد المفتاح لعبد الحميد عند المغرب كنت قد لبست عباءتي وخرجت بسرعة إلى أقرب

مكتبة من المنزل وقمت بتصوير نسخة من البحث، وأعدت كل شيء كما كان واختليت في الليالي إلى رياض وأفكاره وهواجسه.

عرفت إلى أي نوع من الرجال ينتمي، لا يسعني الآن شرح ذلك؛ لكن أستطيع القول إنه ذلك النوع الذي سأعرف كيف أجعله يروقني جداً وبقليل من الجهد، إن كان كما في بحثه هذا فالحق أنه رجل رائع؛ لكن ما الضامن لذلك، إن الذين يكتبون يكونون في كثير من الأحيان أبعد ما يكونوا عما كتبوه؛ ولكن مهما يكن من أمر فمن يكتب فكرة فإنها على الأقل موجودة في وعيه، لابد أن هناك فائدة ما.

إن كنت يا رياض يا ابن منصور كما هي أفكارك وكلماتك في البحث، فأنا قادمة، ماذا تنتظري يا أمل، إنها فرصتك التي لن تعود. وعبد الحميد؟ ماذا سيقول عن أخته التي قفزت لخطف صديقه، إن شاء الله يتفهم ذلك، وإن لم يتفهم سأستعين عليه بأمي وأبي، لكل حادثة حديث.

مشروع البحث - الكتاب يتضمن في فهرسه عناوين حيوية، وللأمانة فقد تناول جميع القضايا المشار إليها في الفهرس بنقاش مستفيض مشفوعا بالنماذج والأمثلة الملموسة من حياتنا اليومية، كل ذلك بأسلوب كاتب متمكن ينم عن عقلية واعية بالمجتمع ومشاكله، وكذا عقلية طامحة إلى مستقبل أفضل. وهذا الفهرس:

الباب الأول: مدخل

الفصل الأول: طبيعة الشخصية اليمنية

الفصل الثاني: مكونات الشخصية اليمنية

الفصل الثالث: هل الشخصية اليمنية قابلة للتطور

الباب الثاني: مشكلات مجتمعية معاصرة

الفصل الأول: العرف

الفصل الثاني: الزواج

الفصل الثالث: التربية

الفصل الرابع: مفهوم العيب

الفصل الخامس: الشطارة

الفصل السادس: القانون والساذج

الفصل السابع: الفهلوة

الفصل الثامن: إلغاء الآخر

الفصل التاسع: الثقافة العامية

الفصل العاشر: اليمني والشائعات

الفصل الحادي عشر: نماذج من الاستهتار المجتمعي

الباب الثالث: آفاق مستقبلية

الفصل الأول: التعليم

الفصل الثاني: الثقافة

الفصل الثالث: الحرية

الفصل الرابع: الشفافية

الفصل الخامس: الديمقراطية

الفصل السادس: المسؤولية الجماعية

هكذا يبدو رياض في بحثه أو بالأحرى كتابه طاقة من الجهد والهم العام، والعناية بشؤون بلده ومجتمعه، على أن ذلك قد لا يشدني كثيراً بالنظر لأهدافنا نحن النساء، حيث يقال وربما أن ذلك صحيح أننا لا نهتم إلا لشؤوننا الخاصة، والحديث على ذمة عبدالحميد، ولا يهم المرأة أن يسهم زوجها في نقاش مشاكل مجتمعية بقدر ما يهما أن يسهم في نقاش ومعالجة مشاكلها العائلية الأسرية. لكن على الرغم من ذلك فهو شرف لأي امرأة أن ترى اسم رجلها مطبوعا على كتاب، يكفي أن تضعه على مكتبة المنزل لتتباهى به أمام الزائرات، ثم هي ستعرف كيف تشغله رغم ذلك في مسائل البيت مهما كان انشغاله في الشأن العام .

ولو سمعني رياض لابد سيزجرني: مهلا يا امرأة ما بالك تتحدثين كأنك لم تدخلي جامعة ولم تعرفي البحث العلمي، وشرفه! ولم تتعلمي تعليما عالياً، ولم تطرقي صروح الثقافة!

الحق أني فعلت كل ذلك، وأعرف ذلك المناخ. "ولكن حين يتعلق الأمر بعاطفة المرأة فإنها تنسى كل شيء، ولا تهمها المسائل الكبيرة، إلا بعد أن تطمئن على أساسيات حياتها، ومن بينها الاستقرار في بيت وعلى ذمة رجل ."

ولقد سمعتُ عبدالحميد أكثر من مرة يقول لي معيراً: أنتن النساء لا تعنيكن شؤون الدساتير، يقول هذه الجملة ثم يضيف هكذا قال عنكن أعظم مؤرخ في العصر الحديث. ثم يذكر اسم كاتب أجنبي من الصعب حفظه. المهم فليقولوا ما يشاؤوا، ما شأننا بالدساتير فعلاً، ذلك لا يهم، دستورنا هو العائلة، البيت والحب والحياة، ماذا يردون أكثر من ذلك؟ !

وانغمستُ في تفاصيل تافهة ثانوية، ونسيت أن هذه التفاصيل حول رياض كلها إنما تمت لي بفضل اطلاعي على مسودة كتابه؟ ألم تعرفيه أكثر من خلاله، هل نسيت حديثه في فصل الزواج، هل رأيت أحداً يتناول الزواج بهذا المستوى من النضوج، ألم يجعلك ذلك الفصل تحديداً أكثر تشبثاً برياض .

وسيقول لي عبدالحميد حين يتسنى لنا الحديث حول هذا الموضوع: هكذا يجب أن يكون رياض، ويجب أن تحرصي على بقاءه في هذا المستوى، وإلا فإنك تكوني قد

عطلتي رجلاً وحولتيه إلى مسخ من المسوخ. بل إن لم تضعي هذا في حسابك فربما لن تكوني المرأة التي تعجبه. رياض رجل يصعب التنبؤ بخطواته ورغباته، هكذا قال لي يوماً، فزاد ذلك من إعجابي به، بل إن انشغاله الذهني بجوانب مجتمعية وهو الدارس لتخصص الإدارة شدني أكثر وأكد لي شيئاً مما قاله عبدالحميد، وإني أجد في تنوع أفكاره وشخصيته ما يثير إعجابي أكثر، ما أنا إلا امرأة كسائر النساء تنبهر معجبة بكل شيء يتميز به رجلها، وإني حين أتأمل شخصية رياض أتذكر أني لم أرَ شاباً يشبهه ولا حتى في الجامعة، إنه شاب أصيل، هكذا يمتدحه عبدالحميد فيشعل فضولي ورغائبي معاً، إنه شاب أصيل، ويحب أغنية فيروز "عودك رنان". كدت أن أقول: هذا ترويج عيني عينك يا عبده أخي؛ وبإسلوب جاذب حقاً؛ لكني سعيدة بهذا، ماذا أريد أحسن من هذا؟!

والحق أن سمة التنوع هذه كانت واضحة في شخصية رياض، وكانت تضفي عليه هالة من التألق والتجدد، وكنتُ ألاحظها عندما أتواصل به. سألتُه ذات مساء: ماذا تفعل الليلة؟ فقال: بل قولي ماذا أفعل هذه الأيام؟ ثم أضاف: بعد أن انتهيت من البحث، رأيت أن أدلّع نفسي بالرواية، إنني اقرأ الحرب والسلم. من قرأها دخل الجنة.

فضحكتُ وقد أعجبتني شطحته هذه وقلتُ: أين وصلتَ بها، اقرأ لي سطراً لعلي إذا قرأتها يوماً أصل إليه فأتذكره وأتذكرك.

فضغط زر تسجيل الصوت دون تأخير، وسجّل: وكان الإمبراطور يخطب بالجماهير من شرفة عالية، وبيده قرص من البسكوت، وسقطت قطعة من ذلك القرص فتدافع عليها بعض الحاضرين، وحين رأى الإمبراطور ذلك، ألقى إليهم بعدد من أقراص البسكوت؛ فراح عدد كبير من الحاضرين يتدافعون من يظفر بها.

مثل هذه المداخلات من رياض تبعث التسلية في نفسي، وهذا صوته أعيد الاستماع له مرات، واستخرج منه ما لم يخطر له على بال حين سجله، وإنه فوق كل شيء يقرأ بطريقة رائعة مشوقة. التنوع في شخصيته كان يفرض عليَّ انجذاباً لا أستطيع مغالبته.

(رياض منصور)

تبدو أمل فتاة ملحاحة، ليست ممن يقتنعون أو ييأسون بسرعة، كلما حاولت التعامل معها ببرود تطل عليَّ بأكثر من طريقة، فتاة عجيبة، وقد لا يخلو ذلك من إزعاج للرجل؛ لكني في الحقيقة أحببت منها هذا الإصرار، أو كما يقال في الثقافة المحلية إنها ينطبق عليها وصف "مرقّسة لكنها لذيذة" متعلمة درستْ كلية الآداب قسم إنجليزي؛ ومع ذلك بها شقاوة راعية أغنام، لديها حس نكتة، هي فيما يبدو طامحة إلى شيء يروق مزاجها، أو أنها حين يعجبها شيء فإنها تصر على أن تصل إليه مهما كانت الصعوبات، وعموما فالرجل يحب المرأة التي تقتحمه بقوة شخصيتها، هكذا كنت أشعر من خلال مناوبتها على مراسلتي، حتى لو لم أرد كانت ترسل، يبدو أني تعودت على رسائلها على الرغم من محاولة تجاهلي لها، أو اعتقادي أني كنت أتجاهلها، لكن يبدو أني صرت متعود على رسائلها، فإن كنت أتجاهلها حقاً فلماذا صرت انتظر مشاكساتها ومراسلاتها التي قد أرد عليها، أو لا أرد عليها، كنت تاركاً المسألة لمزاجي، الحقيقة أن هذه "المرفسة" خلقت لنفسها موقعاً في نفسي، صحيح أنه بدى ثقيلاً في البداية؛ لكنه ما لبث أن صار موقعاً حقيقياً محبوباً، وجد له أصداءً رائعة في نفسي. فليكن يا أمل، مبدئياً مرحباً بك.

هكذا تركتُها تتقدم، وتكسر عدداً لا بأس به من الحواجز، وكنت متواطئاً معها في ذلك، أقول على الأقل لأخرج قليلاً من الجو الثقافي وهذه الأمور الجدية، فالفتاة هذه كما هو واضح قادرة على خلق أجواء مسلية، وما أحوجنا لذلك.

فصارت أمل إضافة جميلة لحياتي ونافذة ملهمة لقلبي، شعرت معها بأن شخصيتي أكثر لمعاناً، وأن ذهني أقوى قريحة، وباتت إطلالاتها تتخلل أوقاتي المملة؛ فتحولها إلى تسلية وموانسة، كل ذلك مع شعور بشغف التعارف والاكتشاف، وهو شعور تتفتح معه الروح.

- وعبدالحميد! ألا يعد ما نقوم به خيانة له .

سألتُها، وقد كان هذا الهاجس يشغلني جداً، ومن الواضح أنها لا تعي ذلك، فأجابت بلهجة قاطعة:

-لا تقلق من موضوع عبدالحميد، أقول لك نحن ناس منفتحين معنا عِرق تركي .

ضحكتُ وقلت: - يعني ضروري عقدة الأجنبي!

فأجابت: - أبداً والله؛ لكن كيف نقنعك، وتترك القلق من مسألة معرفة عبدالحميد.

ولم أعلق، فأضافت: - لا تجعلني أقول إنه يعرف ذلك؛ ولكنه يغض الطرف.

لا تعلم أنها زادت من مخاوفي؛ ولكن ما عساني أفعل وهي التي تعتقد أنها بهذا القول قد أزاحت القلق عني، هل أقول لها أنها زادت الطين بلة بهذا الكلام؟! لم أستطع قول ذلك، ووجدتُ نفسي أتقبل هذا الأمر على نحو غريب أثار تعجبي. وإن المرء ليعجب أحياناً من قدرته على التقبل! وواصلتْ أمل تقدمها بشجاعة وثبات، وكانت تعتقد أنها تقطع مسافات، وقد كانت كذلك بالفعل، وإن كنت أعتقد أن هذا ليس صحيحاً، إلى أن حدث التحول الكبير في شعوري تجاهها في وقت لاحق، على أني بقيت خلال هذه الفترة على اعتقادي بأنها ما تزال في مساحة محدودة من وجداني، وأننا نتسلى مع بعض وأنها هي الأخرى سعيدة بهذه التسلية، وكنت أحرص على أن أذكر نفسي بذلك، خشية أن أفقد السيطرة على نفسي.

وحين وجدتها تتحدث بلهجة المرأة التي باتت واثقة من أنها قد قطعت شوطاً كبيراً، وأن خيوط اللعبة صارت في يديها، وأنها باتت الفاعل الأول، حين وجدتُ ذلك نهض بداخلي الكائن المتوجس، وقلت لها بأعصاب باردة:

- والله تأخرتي شوية، لو أنك ظهرتي قبل سنتين مثلاً، كان ستكوني شاطرة، لكن الآن صعب.

قالت: ما هو الصعب؟

قلت: يا مجنونة وبنت عمي أين أذهب بها؟ أنا خاطب بنت عمي .

قالت بلهجة غير مسبوقة: لك العمى يعمي عيونك، قال لك خاطب بنت عمي .

ضحكت: - هههههه كيف

أجابت: - ممنوع، لا بنت عمك ولا بنت خالك .

-أكلمك صدق أنا خاطب بنت عمي الذي في القرية. لكن لا أحد يعرف بهذا الأمر سوى أنا والبنت وعمي وعمتي؟

أجابت بلهجة ساخرة: على هكذا المديرية كلها لابد تكون عارفة .

ثم ارتفعت حدة لهجتها: - افسخ الخطوبة، انسى القرية، خليك هنا وركز معي، لن أسمح لك بالإفلات من بين يدي .

قلت: - هذا سلوك أناني، أنتِ تعتدين على حق غيرك بقسوة .

قالت بانكسار: - إن كان هذا كلامك فقد ضيعت أحلامي .

-وما هي أحلامك؟

-أحلامي رياض وكلما سيأتي معه من محبة وحياة .

-أحلام جميلة؛ لكنها ربما بالنظر للتوقيت غير مشروعة .

ثم أضافت بلهجة من يضيف كلاماً يائساً لن يغير من الموضوع شيء؟

-هل تحبها؟

-تقصدي بنت عمي؟ صراحة لا أستطيع أن أقول إنه حب؛ لكني مع ذلك أعزها واحترمها .

-ما علينا من الاحترامات، أسألك هل تحبها؟

-لا .

-شكراً، ولكن ما الذي يدفعك لخطبة فتاة لا تحبها .

-لست من خطبها .

-؟؟؟؟

-خطبها والدي، حدث ذلك ربما في لحظة حرج بين شقيقين لم يتأكدا من رغبة المعنيين بالأمر، وكانا يظنان أن الرغبات فوق كل تصور .

-وماذا أنت فاعل؟

-لا أدري، رسميا أنا فعلاً خطيبها، ولا أعلم ماهي الخطوة التالية .

-لا خطوة تالية ولا هم يحزنون، انسحب من هذه الخطوبة، لست أول من يفعل ذلك، ثم إن كل فتاة مخطوبة تتوقع شيئا كهذا؟

-تقصدي أنها لن تشعر أن ابن عمها قد أحرجها أو خذلها؟

-أقصد فسخ الخطوبات أمر ليس بالجديد .

-هل جربتيه أنتي من قبل؟

-لا. لكن لي صديقة جربته، وكان الأمر طبيعي، صحيح إنها اكتأبت في البداية؛ لكن تعرف نحن شعوب مؤمنة، يكفي أن تردد على مسامع من يقع في أمر كهذا كلمات من قبيل (لعل في ذلك خير) و (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) لتجده وقد اطمأن إلى هذه المسكنات .

-إنها مسكنات رائعة بالفعل .

-يعني أعتمد عليك، انتظر خبر فسخ الخطوبة .

-لا تنتظري شيئا كهذا .

-هل أنت جبان للحد الذي تتزوج فيه بامرأة لا تحبها .

-لست بجبان .

-كيف لي أن أربط بين حديثك هذا وما ورد في كتابك؟

-الذكي لن تغيب عنه خيوط الفكر .

-الآن تذكرت لماذا أسهبت في فصل الزواج، ولماذا تحدثت بكل تلك الحرقة .

-من الجيد أن تصلي لهذه الاستنتاجات .

-ما فائدة الاستنتاجات إذا كنت ما تزال مرتبط ببنت عمك .

-اتركي الأمر للأيام وهي ستسويه .

-لست فاهمة شيئاً .

-ولا أنا .

(أمل)

كان علي أن أحفظ تلك الجملة كاسمي "رياض رجل يصعب التنبؤ بخطواته ورغباته" من كان يتوقع أنه مرتبط بخطوبة، حتى عبدالحميد نفسه لا يعرف ذلك، ربما أخفى رياض هذا الأمر عن قصد؛ لأنه لم يكن يرد له الذيوع والانتشار، هذا يعطيني شعاع أمل أنه يود التخلص من تلك الخطوبة، وأنه يفضل السكوت عنها لأنه يعتبرها في حكم العدم، إن كان الأمر كذلك، فما يزال الحظ مبتسماً لي؛ لكنها مع ذلك كانت مفاجأة صادمة، قالها بكل برود هذا المفتري، ولكن ماذا كنتِ تريدين غير ذلك، إن الرجل الذي يتحدث بهذا الوضوح يعد رجلاً صادقا يمكن الائتمان عليه؛ ولكن لماذا لم يفصح عن ذلك منذ فترة طويلة، أكان طوال هذه الفترة يعتبرني مجرد صديقة يدردش معها ويتسلى، حتى إذا آنس مني جانب الجد رأى أن يكبحني ويوقف اندفاعي؟ وماهي الاستنتاجات التي يفترض أن أخرج بها من كل هذا؟ هل أفهم من ذلك أنه قد بدأ يشعر نحوي بعاطفة خاصة؛ ولكنه حائر في كيفية التعامل معها، كيف يقبل عليها بشكل صحيح وكامل، كيف يفرغ لي مشاعره وعواطفه بشكل كامل لا يقبل المشاركة والخداع، سأكون متفائلة كثيراً إذا فكرت كذلك، ولكن ليس لي سوى أن أفكر على هذا النحو، لست على استعداد للتفكير المتشائم، الحق أن الرجل فيه عزة ونبل، وفيه وضوح قلَّ أن تجديه في رجل من رجال هذا الزمن، كل ذلك يشفع عندي لهذا المطب الذي تفاجأت به. نوران! من أين خرجت هذه المنحوسة! ولكن كان واضح من كلامه أنها خطوبة شبه ميتة، فما هو فاعل حيالها؟

***

وثمة خطأ سخيف ارتكبته عندما زل لساني بحكاية العرق التركي وأنا أتحدث مع رياض، ذلك أنه عقب إنها ذلك الحديث عاد في وقت لاحق من ذلك اليوم وخص ذلك الموضوع بنقاش خاص، فقد فتحت هاتفي لأجده وقد أرسل رسالة يقول فيها:" إن كنتِ تعتقدين أن إعجابي بك سيزداد لأن لديك عرق تركي فأنتِ مخطئة". وبرغم أني اعتبر نفسي ممن لا تنال منهم الكلمات بسهولة، وأني لا آخذ كثيراً من كلام الآخرين على محمل الجد حتى لو كان كذلك، برغم ذلك فقد شعرت أن رسالته هذه أوجعتني

وجرحت كبريائي، لا لشيء ولكن لأنه خطأ سخيف بالفعل ما كان يجب أن أتفوه به، سذاجة امرأة أمام شخص باحث في علوم الاجتماع، الويل لمن تخطئ أمام هؤلاء العميقين، ستكون محل تهزيء بلا رحمة، على أني لم أكن أنوي قول ذلك؛ ولكني دُفعت لذلك تهرباً من موضوع أهم، فقد أردت أن أهرب من حكاية قلقة من معرفة عبدالحميد فوقعت في خطأ أكبر، بالكاد قدرت أنصف نفسي منه حين وضحت له أن الأمر لا يعدو عن كونه نكتة سخيفة، وأن حكاية العرق التركي إن صحت وهذا كلام لا قيمة له أصلاً، فهو أي العرق من جهة أمي لا من جهة أبي، بيد أن ذلك كله بالنسبة لرياض هباء في هباء وتهافت مقيت كما قال، وقد فهمت من حديثه أن المرأة التي تفاخر بهذا الأمر ما هي إلا شخصية فارغة، سطحية، لا عقل لها. الموضوع له عدة أبعاد طبقية وإنسانية في نظر هذا الباحث الاجتماعي، ولابد أن يكون كذلك؛ ولكنها سذاجة نسائية واجترار لمقولات بدون مراجعة جدواها أو وجاهتها، وعندما فكرت ملياً حول سبب انزعاجه إلى هذا المستوى، التمست له العذر؛ فقد توصلت لتفسير اقتنعت أنه التفسير الأرجح، وهو أنه ما كان يفترض بي قول ذلك وأنا التي اطلعت على مسودة بحثه الاجتماعي، ويفترض أني قد تعرفت على نمط تفكيره، وعقيدته في الحياة والانتماء، لابد أنه قد شعر بأنه أمام امرأة غبية أو مغرورة، بينما الحقيقة أن الأمر أبسط من ذلك، على أني خرجت من هذا الموقف بفكرة جميلة عن رياض، وهي أنه يمني حتى النخاع، يعتز بمحليته ويمنيته، وليس معنى ذلك أنه يكره ثقافات الآخرين، بل على العكس فهو منفتح ومطلع؛ لكنه يرفض الشعور بعقدة النقص التي يقع فيها كثير من الناس، حين يعجبون بكل ما هو غريب وأجنبي، وحين يقدمون أنفسهم محلياً يقدمونها بمرجعيات خارجية وأجنبية، هذه عنده من الكبائر. ومن العجب أنه قال: "من الجيد أن يكون لك شخصية هجينة متنوعة تضيف لجمالك وتثريه فهذا شيء رائع؛ لكن بشرط ألا يكون ذلك منبع فخر لديك على حساب محليتك، وعلى حساب الانتقاص من الروح المحلية الخالصة". كلام كبير يقوله هذا الرجل ولعلني لم أفهم إلا جزء طفيف منه؛ لكن الحقيقة أن هذا التفكير على ضبابيته أعجبني، فشكل لي مواساة ساعدتني على تخطي الشعور بالندم تجاه ذلك الخطأ.

رياض

(رسالة من عمي)

ابن أخي العزيز رياض منصور، تحية طيبة وبعد :

فإني آمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت في أحسن حال، وأتمنى أن تتمكن من زيارة قريتك في أقرب فرصة، وأود أن أبلغك أن ليس عليك بعد الآن من حرج فيما كان بيننا من خطوبتك لنوران، فإني قد فهمت صمتك، واستنبطت ما خفي من رغباتك، وتبين لي من ذلك كله أننا تسرعنا حين حسمنا أمركما أنا ووالدك دون مشاورات كافية .

وعليه فإني أبلغك أن خطوبتك من نوران لم تعد قائمة، وأن كل منكما حر في أمره ومصيره .

ملاحظة :

كتبت لك هذه الرسالة خطيا في عصر الهواتف والرسائل لكي يكون خطي شاهداً على صراحة موقفي، بما لا يدع مجالا للشك، ولتكن أنت على بينة من أمرك وليرتاح ضميرك .

وإني أعرف أنك ما كنت لتجرح بنت عمك، ولا كان في وسعك القيام بخطوة كهذه، فكان لابد من المبادرة من قبلنا .

والسلام ؛؛؛

عمك حسين

يا الله يا عم حسين كم في رسالتك هذه من الشهامة الموجعة، أنا حزين جداً لسماعي هذا الكلام الذي طالما تمنيت حدوثه، لكن أن يأتي على هذا النحو فإنه يبث في أعماقي شجون لم أكن لأتوقعها، ونوران أشعر تجاهها الآن بعاطفة هائلة، ظلمتك يا نوران، لكن ربما لا أحد يعلم الآن أني أحببتك، الآن فقط، وأني الآن على استعداد لأن أرفض مبادرة عمي وأصر على خطوبتي منك. سامحيني يا نوران فربما أني أناني أو أني مغرور، أو أني آمنت بالنظريات الحديثة إلى الحد الذي جعلني أقسو على بنت عمي الأصيلة بنت الأصيل؛ بيد أني لم أرد خداعك لقد كان موقفي السلبي من الصمت وعدم القيام بأي خطوة عملية عقب الخطوبة كل ذلك كان من باب التريث، لكي أترك المجال مفتوحاً لتصحيح أية أخطاء قبل فوات الأوان .

أما وقد صار كل منا مستقل بمصيره فإني حزين، رغم أن هذا ما كنت أصبو إليه. والله المستعان .

بقيتُ عقب رسالة عمي أسبوعاً وأنا كلما هممتُ بالاتصال به تراجعت في اللحظة الأخيرة، وكم رجوت الله ألا يبادر هو فيتصل بي، ستكون القاضية بالنسبة لي فلن أستطيع الرد عليه، وفي نفس الوقت لن يسعني تجاهل اتصاله، آمل ألا يستعجل وستواتيني الشجاعة للتواصل به، وأخيراً جاءتني الشجاعة، رسالة نصية بعثت بها، شكرته على تواصله، وعبرت له عن عظيم أسفي عن كل شيء. بدى عمى متفهماً كريماً، ومن حديثه وجدت نفسي وقد تحليت بشجاعة كافية فاتصلت به، وتحدثنا، أزاح عني هموماً وحرجاً ما كان لها في نفسي من حد ولا طرف، فأراحني من كل تلك العواصف بشهامته. ألا ما أعظم شيم الرجال !

ثم قلت له ونوران كيف حالها أين هي، هل أستطيع أن أكلمها إن لم تمانع؟

فقال: موجودة ولا بأس بأن تكلمها .

كم أنت عظيم يا عمي! إن ثقافتي كلها لا تساوي شيئا أمام موقفك هذا، وما هي إلا لحظات أو ثوان، وإذا بي أسمعه يقول لها: - كلّميه يا بنتي عادي، هذا ابن عمك مهما كان، أيوه هكذا شاطرة .

-ثم أتى صوت نوران، وبعد التحية والسلام وتبادل السؤال عن الحال قلت:

-أنا حزين على بنت عمي. حزين عليك يا نوران وأقسم بالله .

-لا تحزن ولا شيء هو نصيب .

-من جد ما كنت أتوقع أن الحزن سينتابني إلى هذا الحد .

-لا فائدة من الحزن، هذا حال الدنيا، لعل في ذلك خير .

-يعني أنتِ مسامحة لي مش غاضبة مني؟

-أكيد مسامحة لك، وليش أغضب عليك، أيش استفيد !

- وعمتي كيف رأيها؟

-عمتك تقدر تقول إنها فعلاً غاضبة، لكن ما عليك منها .

-اطلبي منها أن تسامحني، لا أجرؤ على الحديث معها، أما أنتِ فأنا أعرف أنك امرأة ورجل، أنا أعرف إنك شجاعة مثل أبوك .

- تسلم يا بن العم .

-نوران، أحبك يا نوران .

قلت ذلك وغلّقت خوفاً أو هرباً أو ماذا؟ لا أدري، هل قلتها صادقا أي نعم صادقاً، هل قلتها شفقة، لا والله لم تكن شفقة، فماذا إذن، وما جدوى هذا الكلام الآن، أيعقل أن يهبط الحب فجأة نتيجة التأثر ووجع الضمير، لا أدري، أما أنا فقد رأيت أني خسرت امرأة عظيمة، غبي من يترك فتاة بهذه الأصالة والثقة! لعن الله النظريات الحديثة، تبا لكل العلوم التي تعلمت يا رياض، كيف بقيت هذه السنوات مقاطعاً لهذه الفتاة الطيبة، بل إنك قاطعت حتى قريتك وعمك، أكنت هاربا أم كنت جباناً، أم كنت ضائعاً وفاشلاً، الحق أنك كنت كل ذلك، أنا حزين يا نوران، أنا حزين يا بنت الأصول.

(عبدالحميد)

كنتُ أتحدث في الهاتف ونحن خارجين من سوق القات في الساعة الواحدة ظهراً، عندما رأيت بضعة أشخاص يتجمعون وسط الشارع، وكان أحدهم يومئ للسيارات التي تمر في ذلك الشارع بالوقوف وعليه علامات الفزع التي توحي بأن ثمة شخص ملقى على الأرض مصاباً، وقفت في الرصيف واجتهدت في إنها المحادثة، ومشيت ولم انضم إلى الدائرة التي كانت قد تشكلت من الأشخاص الذين هرعوا إلى موضع الحادث خشية أن أتأخر على رياض الذي كان قد سبقني إلى السيارة، وكذلك لكراهتي فضول التجمع على أي شيء والذي قد يعيق الحركة التي يحتاجها الناس في مثل هذه الأمور الطارئة، غير أني التفت فرأيت قدم المصاب وهو ملقى على الأرض قبل أن يرفعوه، شعرت بشيء يجذبني للاقتراب من الدائرة، فقلت سأتصل برياض لأعلمه على الأقل أني عند الحادث. ضغطت زر الاتصال فسمعت أحدهم يرد. لم يكن رياض، بل شخص يقول: ـ أنت صاحبه، هذا تلفونه. ثم انتبهت إلى أني أسمع الصوت من مصدرين؛ من الهاتف، ومن أمامي مباشرة أيضاً، إن الرجل يتحدث إلى الهاتف وأنا أسمعه، يا إلهي! إنه.. وبيقين قاطع لا يقبل الشك قلت إنه رياض، هذا الملقى على الأرض رياض، وها هي ثيابه حقاً البنطلون الرمادي والجاكت الأبيض، واندفعت نحو الحلقة. فرّقت بضعة أشخاص بيدي إلى أن أطليت برأسي إلى داخل الدائرة. كان اثنان من المتواجدين قد حملوه من إبطيه، فيما شخص ثالث ورابع مدا يديهما للمساعدة على حمله من قدميه، كان رياض مغلق العينين هامد الحراك، وخيط دم خفيف ينساب من جانب وجهه الأيسر.

أمسك بي أحد الحاضرين وقد أدرك أن لي علاقة بهذا المصاب، قال لي: تماسك، وأشار بيده إلى ذراعي لينبهني إلى أن جسمي صار يرتجف بشكل لا إرادي ارتجافاً عنيفاً، فيما لساني جاف وأنا من الذهول في غاية.

رأيتهم وقد حملوه، يقول أحدهم: سيارة لو سمحتم سيارة، إسعاف.

فقال آخر: بل دراجة نارية أحسن وأسرع.

واتتني قوة غريبة للانضمام إليهم أو اللحاق بهم قبل أن يختفوا عن ناظري، وهتفت:
- هذا صاحبي، هذا أخي، انتظروني لا تتصرفوا من تلقاء نفسكم.

أجاب أحد المسعفين: الوقت ضيق، تداركوا الرجل بالإسعاف لابد أنه ينزف.

لم أفكر بالسيارة ولا بشيء من ذلك، ركبنا أكثر من دراجة نارية وانطلقنا المستشفى، وماهي إلا لحظات حتى وصلنا المشفى، وعلى قلة تلك اللحظات إلا أنها مرت كأنها أعوام، ولا أتذكر أني قد شعرت بحياتي برغبة في ضغط الوقت واختزاله إلى ثوان كما حدث ذلك اليوم.

من الطوارئ إلى العناية، ثم القلق. انهالت الاتصالات، كانت أمل أول المتصلين، إنها تنتظرنا على الغداء. قلت لها: عليكم أن تتغدوا لا تنتظروا.

لكنها هتفت: عبدالحميد ما بك سلامات، صوتك يوحي بأن وراءك مصيبة.

كنت مرهقاً فلم أطل عليها ولم أستطع إخفاء الخبر:

- أنا في المستشفى، رياض تعرض لحادث.
- يا الله.

قالتها بصوت مفجوع نفذ إلى ما تبقى لي من بصيرة فمحاها، وكررتها أكثر من مرة بتفجع أعظم، قبل أن تضيف إليها أي استفسار أو توضيح.

- متى وأين أنتم الآن؟ يا ربي من هذا الخبر الوحشة؟

قالت ذلك بصوت غارق بالبكاء كمن صار له ساعة متواصلة يبكي.

- في الثورة، نحن في الثورة.

الساعة الخامسة عصراً وقد امتلأ رواق المشفى بأهل رياض وأصدقائه. قال لي ابن عمه: -لاشك أنك لم تذق لقمة غداء.

أجبت بشفاه يابسة: - من أين لي أن أفكر بالغداء وسط هذه الفاجعة.

قال: - هيا معي، يوجد غداء في السيارة. لابد أن تأكل.

وأضاف لكي يشجعني: - إن شاء الله أنه بخير، الأطباء يقولون إن الإصابة خفيفة، جرح بسيط في الجبهة، وكسر في الضلع الأيمن.

لعله يريد طمأنتي بهذا الكلام، من يدري ربما أن الأمر أشد من ذلك؟! ولكن لماذا قد يخبئ عني، إنهم ولا ريب حزينون وقلقون أعظم مني، أليسو أبناء عمه؟! آمل أن يكون ما قاله ابن عمه صحيحاً. آه كم هو مرعب أن تختطف الحوادث صديقك من جوارك، بل من طريقكما معاً.

مضت الساعات، ونفدت بطارية هاتفي، الشاحن في السيارة، السيارة ما تزال هناك جوار السوق الذي وقع فيه الحادث، وأنا جائع وخائف، لابد من استخدام الهاتف، لابد من الذهاب بسرعة لجلب السيارة.

(رياض)

فتحتُ عيني فرأيت دائرة من الرؤوس فوقي تنظر لي بعيون مستطلعة قلقة، من هؤلاء؟ وأين أنا؟ هذه رائحة مستشفى، وهؤلاء عمي وأبناء عمي، وحتى أخي الذي يسكن في القرية، أصدقاء وأقارب، الغرفة ممتلئة، نظرت في الجدار كانت الساعة الحادية عشرة مساءً.

القات بكيس أخضر في يدي اليسرى، والهاتف بيدي اليمنى أكتب رسالة نصية وأنا ماش مشياً متقطعاً في الشارع العام، أتوقف قليلاً وأكتب وأسير قليلاً، مشغل الموسيقى بهاتفي يعمل، والأغنية لفيروز "عودك رنان"، ثمة باص واقف أمامي، وراكبٌ ينزل منه. أمر أمام الباص لأعبر إلى الجانب الآخر، صوت ارتطام يجرفني. هذا كل ما أعرفه، أو هذا آخر ما حفظت. ماذا حدث بعد ذلك؟ أحمد الله على أني لم استوعبه.

كلّم الناس هؤلاء الواقفين فوق رأسك، تحدث إليهم بأي شيء قل كلاماً يسكن من قلقهم، حسناً سأتحدث، ولكن ما هذا الشعور الغريب الذي تخلفه النظرات المشفقة، لو جلسوا لزالت عقدة لساني، كيف أقول لهم اجلسوا، الايماء ينفع، أومئ لهم بيدك.

فجلسوا، وتهللت أساريرهم، إشارة اليد لغة، وفهمت من ذلك أنهم كانوا ينتظرون أي حركة مني تعيد لهم الأمل، إشارة أو كلمة، يتأكدون من خلالها أني لست في غيبوبة، لتدب الحياة في وجوههم من جديد. ثم ما لبثت أن فهت بأول كلمة قائلاً: حين أتحدث فإن الحديث يضغط على جانب صدري الأيمن وأشرت إلى ضلعي.

لكأني قد تحدثت مرات؛ أو هكذا كنت أعتقد أن كل نفس تنفسته وكل فكرة خطرت ببالي إنما قد تكلمت بها في أعماقي فارتطمت بفوهة الألم التي يغطيها الضماد، وعادت على أعقابها إلى مركز الألم لتشكل بعودتها ألما معنويا إضافياً إلى الألم العضوي.

**

وقد شرحوا لي في وقت لاحق أن قدرتي على الكلام في اليوم التالي قد عادت تقريباً إلى الوضع الطبيعي، وأني طلبتُ نقل سريري إلى جوار النافذة، أما أنا فلم انتبه لذلك

إلا عندما رأيتها تحدثني وهي جالسة على حافة السرير، تستنطقني الكلمات وتقول: - ما عرفتني؟

فقلت: - من؟

فضغطتْ بيدها على يدي اليسرى وقالت وملء عينها نظرة لهفة ممزوجة بالحنان والمعاني:

- أمل.

نظرتُ إليها ملياً كأنما لأشبع من روعة هذه المبادرة، ولأروي روحي الضامرة، ولقد أطلت النظر فيها تقريباً حتى بدا عليها القلق. قلتُ بفم ضامر وأسنان جافة:

- مرحبا بك يا أمل، شكراً لزيارتك العزيزة.

لم أكمل حديثي حتى رأيت عينيها تغرورقان بدمع كانت تجاهد في أعماقها لمنعه من التدفق، وقد أدركت ذلك من خلال تحريك رأسها كأنما لتقوم بتشتيت الدموع ومقاطعة تدفقها. قلت لها:

- أنا بخير. الحمدلله.

فضغطت على يدي أكثر، وهي تتمتم بكلام لم أفهم منه إلا: يا رب يا رب.

لكنها لم تزح عينيها من عيني، كانت كأنما تفضي بأحاديث وأشياء من خلال نظراتها، نظرات محملة بأهم ما يمكن أن يقوله الإنسان في حياته على الإطلاق.

لو لا الحياء لقلت لهم: أنا بخير، هيا خذوني إلى البيت، ذلك أن زيارة كهذه، هي عندي أعظم من جهود كل الأطباء، وإن كنت لا أتمنى أن تراني أمل وأنا في هذه الحال من الضعف الصحي؛ بيد أني لا أستطيع تجاهل الطاقة التي شعرت بها على إثر زيارتها، لا شيء أنفع للمريض أكثر من زيارة الحبيب.

زيارة طيبة ترفع الصديقة إلى مصاف الحبيبات، منذ متى وأنتِ حبيبة لي؟ لكأنه زمن طويل، لا أتذكر الزمن الذي كنتِ فيه خارج وجداني. لا أتذكر الجمل التي قلتها لك

على استحياء أو ببخل عاطفي. ليس لي سوى هذا الواقع الذي بين يدي، أمل تفتح الآمال في عيوني وأنا على فراش المرض. يا لها من امرأة قوية شجاعة.

قلتُ وهي ما تزال في صمتها إلا من ضغطات تلم بها يدي: - كيف لا أكون بخير وقد زارني الأمل بشجاعة امرأة رائعة!

استمر صمتها كأنما كانت عاجزة عن الكلام، فقلت مداعباً وقد طافت بروحي ابتسامة شاملة: - إني أتكلم أكثر منك، ألم تأتِ لتشجيعي؟ مالك يا بنت خالد؟

فندت عنها ضحكة قصيرة مصحوبة باندفاعة من عنقها وصدرها إلى الأمام، ومالت جانباً كأنما لتمسح عينيها، ثم مدتْ يدها لكرسي صغير كان جوار السرير، عليه الجزء الثاني من الحرب والسلم، وأشرتُ لها أن تضع الكتاب على النافذة جوار رأسي، وتأخذ الكرسي، وتجلس وتستريح، وأخذتْه وقربته إلى جوار السرير وجلست عليه، وعادت لتنظر نحوي وقد تهللت بإشراق جديد، ثم قالت: - روحك جميلة حتى في مرضك.

وانتبهت إلى أننا كنا بمفردنا تقريباً عند ذلك السرير، صحيح أن في الغرفة مرضى آخرين؛ لكن لم يكن من الزائرين أحد في تلك اللحظة سوى أمل. قلت:

- لن أنسى هذه الزيارة ما حييت، إنها أنفع لي من العمليات.

فقالت: -

- لو لم أجيء لأصبت بالجنون.

أنعمتُ النظر إليها، وقلتُ:

- أحب المرأة الشجاعة.

فردتْ دون إبطاء:

- أما أنا فأحبك.

الزيارة تكفي كنتِ ستدخرين هذا العطاء ليوم آخر، الإكثار من الفرح سيفرط القلب، لقد أحببتك يا امرأة فوق ما تتصوري، ولو انطلق لساني لأغرقك، أو لجعلك تلوذين بالفرار خجلاً مما ستسمعه أذناك.

وعاد بعض الأهل وهي عندي فانضموا إليها، وتحدثنا جميعاً، وطال بنا الحديث، ولو طال إلى آخر العمر لما كان مملولاً، وكيف يكون كذلك، والنديم أمل، والزائرة حسناء قوية رشيقة شجاعة.

وحين همتْ بالانصراف شعرتُ بها تتأهب للمغادرة؛ لكنها لا تغادر، وتتحرك هنا وهنا، وتتفقد أغراضاً، وتختلق أعذاراً حتى صرفت من كان متواجداً من الأهل، فهذا طلبت منه أن يذهب ليجلب ماءاً، وآخر ليجلب وسادة إضافية، وثالث ليبحث عن الدكتور، حتى خلا الجو، وكانت وسادتي قد تراخت قليلاً فتقدمتْ نحوي لتصلحها، ورفعتْها وخلال ذلك شممتُ رائحة أنوثتها تنبعث من عنقها وصدرها، لكل أنثى رائحة تميزها، وما أجمل رائحتك يا أمل، تغلغلت في أعماقي تلك الرائحة، حتى تمنيت لو بقيت هكذا إلى الأبد وبينما أنا مسترسل في لذة الرائحة وهي ما تزال توظب الوسادة تحت رأسي، إذا بها تنحني نحوي أكثر، وبحركة سريعة تطبع قبلة على خدي الأيسر، ثم تستوي واقفة وتغادر.

شفتاها في خدي لقد شعرتُ بهما بإحساس مباشر لا لبس فيه، فكيف فعلتْ ذلك والبرقع في وجهها؟ هذه أمل وهذه شجاعتها.

ما بالك يا رجل! دعك من التساؤلات الفنية هذه. ما بالك تناقش ظروف القبلة وتنسى القبلة ذاتها! هل أدركت ما حدث لك الآن؟ هل استوعبتَ ما جرى للتو؟ قبلة من شفتيها، قبلة من شفتي أمل، أنت تتذوق أول قبلة غرام في حياتك، هل أنت بكامل وعيك أم عدت لغيبوبتك؟ وكأن رائحة عنقها لم تكف لتخلقك خلقاً طازجاً في هذا اليوم. فأضافت لها قبلة. يفترض بك أن تموت الآن، أغمض عينيك على هذا الإحساس، واعبر إلى نافذة الخلود.

بعد أن صرت بمفردي، التفتُ إلى النافذة جواري، رأيت الرواية، تحسستُ بأصبعي السبابة والوسطى موضع القبلة في خدي، همستُ لنفسي والغبطة تملأني: **"قال لك الحرب والسلم!"** هههههاي، لقد تفوقتْ أمل عليك اليوم يا عم تولستوي.

***

في المستشفى يبحث المريض عن أي شيء يسليه ليقطع به وقته، أما أنا فكانت أمل تسليتي من خلال تواصلها ومراسلتها، بل وزياراتها المتكررة، زارتني مرة هي وأبيها وأمها، وتعرفتُ عليهما ووجدتهما أبوين طيبين، وبالمجمل فقد كانت زياراتها مزدوجة؛ فهي تأتي مع عبدالحميد في كل مرة يزورني، وفي اليوم الذي لا يأتي عبدالحميد كانت تزورني بمفردها، أكان عبدالحميد يعلم بزياراتها المنفردة؟ لا أعرف، المهم أنها تقوم بشيء عظيم، لم تتركني فريسة للوحدة، ولم يقصر معي أبناء عمي والحق يقال؛ ولكن المحب لا يرى إلا بصمات محبوبه من بين كل الناس. سمعتني أحدث ابن عمي الأكبر: إن كان بوسعه إحضار مجلات لأتسلى بقراءتها في الأوقات الطويلة، في اليوم الثاني جاءت أمل وفي يدها جملة من أعداد قديمة لمجلة العربي، قالت إنها جلبتها من بائعي الكتب في ميدان التحرير. المرأة الرائعة تأتي في الوقت المناسب.

وزارني عمي حسين، وعند رؤيته شملني ذلك الحرج الذي تهربتُ منه، فها قد واتاني دفعة واحدة إضافة للمرض، وأدرك عمي أني أود الحديث في الموضوع ربما لأرفع الحرج عن نفسي، وحين أنشأت أتحدث قاطعني بحزم قائلاً: ولا كلمة، أنت مريض، لا ترهق نفسك بأي كلام. لا نظير لشهامة هذا الرجل.

عشرة أيام في المستشفى، وشهر في البيت ثم بدأتُ ألحظ تحسناً.

(رياض)

لا تأتي القبلة إلا من حُب، ولا جزاء للحب إلا الحب، سأخطبها، ستتفاجأ بذلك، وإن كانت تنتظر أمراً كهذا؛ بيد أنها لا تعلم شيئاً عن توقيته وظروفه، بعد الحادث ليس كما قبله، إن الموت يمكن أن يواتينا في أي لحظة، من يدري، لا أريد أن أموت قبل أن تضمني أحضان امرأة، هذا أقل شيء نخرج به من هذه الحياة، وهو شيء عظيم حقاً، يستحق منا أن نوليه شديد العناية، ما حياة الكتب والمدارس والبحوث إن لم تصح في صباحك وإلى جوارك امرأة؟ ما قيمة لياليك إن لم تر فيها زوجة تتعطر وتتهيأ للانضمام إليك، ما قيمة الوجود إن لم تر امرأة خارجة من الحمام وشعرها ملفوف بمنشفة بيضاء على هيئة قُبّة كبيرة، ستنتهي من "الحرب والسلم" وتجد نفسك وحيداً، ماذا تفعل بالسطور والدفاتر، إن لم يتخلل أيامك أنوثة ترطب قسوة الحياة. كل هذا وأكثر ستوفره أمل، إنها ولا ريب تملك الكفاءة لذلك.

- سنتزوج يا أمل، زغردي، وباركي لنا جميعاً.

فقالت:

- سأموت من الفرح.

أعرف أنها ستتفاجأ؛ فهي كانت قد تعبت في النفاذ إلى قلب رجل حذر بطبعه متوجس، أو ربما أنه متهرب من المسؤولية، ولقد حدثتها أن ليس لدي منزل لنعش فيه، فأنا أسكن في غرفة مجاورة للمجلس ببيت عمي منذ أيام الجامعة، وهي تعرف أن وضعي الاقتصادي ليس بالمشجع، فلماذا أقدم على هذه الخطوة؟ أريد أن أعبر لها عن إخلاص نيتي، وأني من حيث المبدأ بت أكثر رغبة منها، بقية المسائل ستحل، ألا يتزوج هكذا معظم اليمنيين؟ بلى، إنهم يتزوجون ثم بعد ذلك يفكرون بالبيت والسكن، في حالة عجيبة لن تراها إلا في هذا البلد، لكن ألا يعد ذلك إكراماً لعاطفة البشر، وتغليبا للحب على الحسابات الاقتصادية، اتركوا العشاق يتعانقون وبعد ذلك سيتولون أمر أنفسهم. كثيرة هي الأسئلة التي تحتاج إجابات قبل اتخاذ أي خطوة؛ لكن لا استعداد عندي فيما يبدو على مناقشتها، لقد قررتُ المجازفة، ولم يعد في مقدوري الانتظار إني عاطش

للأنثى. أجاء كل هذا العطش من قبلة أمل، آلقبلة تروي الروح أم تزيدها عطشاً؟ المجرِّب راغب بالتكرار.

في طريقي إلى منزلهم تبادلنا عشرات الرسائل: ماذا تريد أن أطبخ لك، أي شيء، ماذا تريد أن ألبس لك، على ذوقك، متى تريد أن يكون توقيت دخولي، سنكون معا طوال الوقت، أشعرني قبل دخولك أريد أن أراقب كل خطوة، أريد أن استرق النظر، المخطوبة التي لا تسترق نظراً لخاطبها يفوتها أكثر الفصول شغفاً في الرواية، ماذا ستقول لأبي، ما يقوله الناس عند الخطوبة، هل ستقوم بعمل شيء مفاجئ، كن لطيفاً معي، فأنا على الرغم من شجاعتي التي تعتقدها إلا أني مسكينة، يمكن أنهار في لحظات الشعور الجارف، لا تقم بأي مفاجأة، أعصابي مشتبكة جداً، ادخر كل شيء لأيام قادمات، يكفي من فرح اليوم قدومك، يكفي هذا الضياء المحيط بي، والنسائم الدافئة التي تعطر مزاجي، من مثلك اليوم يا أمل، أكاد أحسد نفسي، لم تقل لي ماذا تريد على الغداء، ماذا أطبخ لك، لا تغالطي المخطوبة لا تطبخ يوم خطبتها، إنها بالكاد تتأنق وتتبرج، أريد أن أبدو جميلة لك، أنت جميلة ولا ريب من دونما حاجة لتأنق، جمالك في شخصيتك وفي شجاعتك، فضلاً عن أنوثة مظهرك، أنتِ جميلة يا امرأة، يكفي، أشعر بالفرح يفيض إلى الشوارع، هل أناديك خطيبتي أم حبيبتي، نادني كما تناديني دائماً؛ نادني أمل.

حاضر يا أمل. "عودك رنان" لم يتوقف مشغل الموسيقى في هاتفي خلال الطريق وقبلها وسيستمر عند عودتي "عودك رنان"، البسي ذلك الروب نصف الكم الذي اقتحمتِ به خلوتي، وغيرتِ من يومها حياتي.

قليلة هي اللقاءات التي جمعتني بوالدها، بيد أن انطباعي عنه إيجابي جداً؛ إنه من أولئك الرجال الذي تشعر معه أنه والدك، وإنه يشكل مع زوجته، أي أم أمل، يشكلان ثنائياً رائعاً يتمتع بانسجام عالٍ، ويوم خروجي من المستشفى كادت طيبتهما أن تسبب لي حرجاً ربما لا يعرفان حجمه، ذلك حين أصرا على أن يكون خروجي من المستشفى

إلى منزلهم مباشرة، وهناك يتم تناول طعام غداء، احتفالاً بصحتي، أي أنها ستكون شبيهة بحفلة؛ غير أني كنتُ حازماً في هذه النقطة وقلتُ في نفسي، سيكون الأمر سامجاً إلى أبعد الحدود. رفضت ذلك بطريقة مهذبة، وقلت لهم إن هذا أمر يدل على كرمهم وأبوتهم؛ لكن من واجبي أن يكون خروجي إلى بيت عمي الذين أعيش بينهم منذ سنوات، والذين لا يقصرون معي في شيء، فاقتنعوا يومها، ربما كانت أمل هي صاحبة الفكرة، فهي مجنونة في هذه الأمور، وربما كانت فكرة الرجل وامرأته فطبعهما يؤهلهما لأن يفكرا على هذا النحو. اليوم سألقاهم جميعاً، وإنه من الجيد أن يكون لك أنساب بهذه الطيبة، سلاسة التعامل، وخفة الحديث.

**

وصلتُ المنزل، وخلال اجتيازي للحوش أمام الغرفة الأخرى المقابلة للمجلس على شكل حرف إل، نقرتُ بحركة مفاجئة نقرة قوية بيدي على شباك الغرفة خلال مروري، فقد كنت أتوقع أن أمل هناك كعادة النساء عند مجي خاطب، وربما يكون بجوارها أخريات، فقمت بتلك الحركة، وكان توقعي صحيحاً فقد تناهى إلي نهوض أحد ما من النافذة واندفاعه بعيداً في جوف الغرفة. اجتزت المدخل وصعدت الدرجتين يملاني تبسم عريض.

وقبل أن نجلس ونتحدث، كنت قد لمحت أمل خلال نهوضي للحمام، فقد كانت واقفة خلف باب الصالة تسترق النظرات، أو قل لم تكن تسترقها بل كانت واقفة لتشعرني بوجودها، كأنما لتقل لي انظر أنا هاهنا، كانت في منظرها ذاك عروسة بكل معنى الكلمة، فقد ارتدت فستاناً لم أستطع تبين تفاصيله، بيد أني رأيته أبيضاً ووضعت على رأسها إيشارب خفيف لونه أزرق فاتح، كان يظهر جزء كبير من شعرها عند الجبهة والجوانب، هل تأنقت كثيراً، لا أظن ذلك، ها هي ملامح وجهها ليس عليها ذلك الطلاء الذي أمقته، والذي سبق وأن حدثتها عن ذلك، إنها جميلة اليوم لأنها سعيدة، وإنها تبدو على هذا النحو من الظهور المستملح لأنها اقتصدت في الزينة، هذه بشارة جيدة في أنها قد فهمت ذوقي في النساء والجمال. ولقد عاشت الدور في ذلك اليوم، كأي فتاة تتصنع الخجل، فلم تدخل عندنا المجلس، وبقينا فيه أنا وأبوها وأمها وعبدالحميد،

وظللتُ انتظر دخولها، وفكرت في أن أطلب دخولها من والديها، أو من عبدالحميد، ثم عدلت عن الفكرة، لعلها تدخل من تلقاء نفسها، أو بإمكاني طلب ذلك في وقت متأخر من نفس اليوم، ما تزال الزيارة في مطلعها. الجو جميل، حتى أمها تعاطت القات اليوم احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة، وقد جلست بجوار زوجها جلسة ذات معنى ودلالات.

- شوف يا إبني والله إني أعزك، وإنك غالي علينا مثل عبدالحميد.

قال لي الأب ذلك، بلهجة من يود إشعار الضيف بروح الأسرة الواحدة، لكي يسهل الحديث والحوار، فقلت: إني واثق من ذلك، وإنكم أهلي كأهلي.

وتحدثنا في أمور كثيرة، وكنت صريحاً معهم حتى في أني لحد الآن لا أعرف أين سنسكن، وأني لم أبحث حتى عن بيت للإيجار، فبادر الأب إلى القول أن لديهم منزلاً قديماً وصفه بأنه على قدمه أفضل من هذا الذي هم فيه، وأن ذلك البيت قديم فقط بالاسم أما مواصفاته فوالله إنه أفضل من هذا، وأضاف أن ابنته غالية عليه وتستأهل، وسيكون هذا البيت هدية عرسها. اسكنوا به براحتكم. هكذا اختتم كلامه، فشعرت بحرج شديد لأني لم أتوقع كلاماً كهذا، وقلت ما كان يجب أن أفتح موضوع السكن، فقلت محاولاً التقليل من أهمية الموضوع:

- سهل البيت، سيكون له حل إن شاء الله. والمهم ألا يكون موضوعه عائقاً تجاه الترتيب.
- لا يوجد أي عائق يا ابني، هذه حياتكم وأنتم أدرى بها. اخطب اليوم تزوج غداً.
- ليت أن الناس مثلك يا عم. شكراً لك.
- هذا واجبنا يا ابني. نحن نكسب رجل قبل كل شيء.

هذا الرجل يخجلني بمداخلاته المتقدمة جداً، وماذا بعد، هل سنظل هكذا طوال الجلسة نتبادل المجاملات، حتى أساسيات العرس حين نناقشها سرعان ما يتفرع عنها مجاملات، وكلام عام يثير الحرج، ويلقي بأجواء ثقيلة على الجلسة، هكذا هو الأمر معي، أين هي أمل تدخل تكسر هذا الجمود. كتب لها رسالة: ما للقمر ما يطل علينا؟

ردت: كملوا أنتم أولاً نقاشاتكم، لو أنت وحدك لدخلت وجلست بجانبك.

- ادخلي واجلسي بجانب أمك.
- كمل مع أبي، سهل، وأنا باقية، ولا يهمك.

تقريباً لا يوجد أية عوائق، الأسرة طيبة، والنفوس خفيفة، يبدو أن انتظار العرس لن يطول. أيها القلب أخفق بأقصى ما تستطيع، أيها الجفاف اغرب عن وجهي، أيها العطش جرجر ذيولك، أيها السهر قريباً تصبح من الذكريات، أيها الرجل الذي أفقرت روحه الوحدة قريباً توانسك فاتنة، قريباً تنضم إلى ليالك امرأة، قريباً يغلق عليكما باب، وتباتان بمفردكما، قريباً تقبل هذا الوجه الذي رأيته للتو في الصالة، قريبا تشبع روحك من النظر في العينين الجميلتين، قريباً تحتضن الأنوثة، وتضم الحنان.

- لكن فيه شيء مهم ومن الواجب علينا أن نطلعك عليه.

قال الأب ذلك، ونظر نحوي، ليرى آثار حديثه، في وجهي، رفعت بصري نحوه، ثم نظرتُ ناحية عبدالحميد، فلم يكن عليه أية أمارات، أما الأم فقد كانت بجوار زوجها، تخط المدكى بذيل ورقة قات، لاهية.

- تفضل يا عم، قول.

فأشار بيده لعبد الحميد ليقوم بإغلاق باب المجلس. ففعل ذلك، وعاد لمكانه، وأنشأ الأب يقول:

- شوف يا ابني يقولوا الصراحة صابون القلوب، وإحنا كان ممكن ما نذكر هذا الموضوع؛ لكن من حبنا لك، ومن رغبتنا في أن تكون هذه الزواجة قائمة على المصداقية والوضوح، عشان تحل عليكم البركة.

لحد الآن لا يوجد ما أعلق عليه، فاكتفيت بإيماءات من وجهي ونظراتي، كمن يوافق على كلامه من أجل حثه على مواصلة الكلام، فأضاف:

- ونتمنى أن الموضوع ما يثير أي إشكالية، وأنه كله خير.

فأجبت وقد غشتني موجة قلق من مقدمته الطويلة:

- تفضل يا عم قول. اطرح الموضوع مباشرة.
- الموضوع يتعلق بأمل.
- نعم مالها.
- حادثة قديمة وقعت، لكن كما قلت لك من واجبنا أن نوضح لك ذلك، نحن في هذا البيت نتعامل بالصدق والصراحة.
- هذا من طيب أصلكم يا عم، والطيبة باينة فيكم ومش محتاجة أية تأكيدات.
- تفضل هذا تقرير طبي، اطلع عليه وشوف.

قال ذلك ومد لي ورقة وضعها فوق المغلف الكرتوني الأصفر الذي أخرجها منه والذي تبدو عليه ملامح القِدم. وعاد ليستريح في مكانه، وهو من القلق في غاية، أما الأم فقد كان بلغ منها القلق مبلغه، أو هكذا خيل إلى، فإني وسط هذا الجو المتوتر، ما كنت أستطيع أن أشاهد ردة فعل جميع الحاضرين. وأخذت أقرأ التقرير، ومع كل جملة كنت أشعر أن ثمة هواء يسحبني إلى نواح غير معروفة، وإدراكي مضطرب كموجة إذاعية تنضم ثم تنفصل. انتهيت من القراءة، وقبل أن أتأكد إن كنت قادراً على التعليق أم لا، قالت الأم:

- طبعاً هذه حادثة قديمة، البنت نفسها ما تعلم.

نظرتُ إليها، ولم أكن أملك في تلك اللحظة إلا النظرات أوزعها بحس مشدوه، فأضاف الأب:

- حتى هذا صاحبك ما يعلم عن الموضوع شيء.

قال ذلك وأشار بحركة من وجهه نحو عبدالحميد، أما أنا فيبدو أني سأعاني لحظات مريرة حتى أتمكن من الكلام.

طبعاً التقرير يتحدث عن تعرض أمل وهي في السادسة من عمرها لحادثة، قالوا لي بعد ذلك إنها كانت انزلاق في الحمام، أدى إلى إصابتها في مكان حساس من جسمها، مكان حساس جداً، لا أدري كيف أذكره؛ الخلاصة أن تلك الانزلاقة وما نتج عنها من ارتطام الطفلة بجسم بلاستيكي مدبب، كل ذلك تسبب بجرح أو تمزيق

لعضو حساس قلنا إننا سنكتفي بالتلميح عنه. يتضمن التقرير أيضاً إشارة إلى تقرير طبيب شرعي تم الاستناد إليه، وشيء من هذا القبيل.

بقيت واجماً وقد تمنيت من أعماق قلبي أن أستطيع قول شيء على الأقل لكيلا أفاقم من حرج الناس الذي أمامي، فإنهم ولا ريب كانوا في قلق، ليس مما يحويه التقرير، بل من ردة فعلي أنا.

- على أننا في ذلك الزمن، قمنا بمعالجتها، وذهبنا بها أنا وأمها إلى لبنان، وهناك أجرينا له عملية، فهي الآن طبيعية، وما كان يمكن أن يعرف أحد ذلك، ولكننا كما قلت لك أحببناك، فلم نشأن أن يبنى زواجكم على أي شيء يثير الشك مهما كان مستبعداً.
- سيكون خير إن شاء الله.

هذه الجملة التي أتذكر أني استطعت التفوه بها، عقب صمت طويل، على أني لست متأكداً إن كنت قد قلتها على هذا النحو، أم أني قلت شيئاً آخر، بيد أني كنت أشعر بثقل الجو المخيم على الجلسة، وأشفق على الحاضرين جميعاً وأشفق على نفسي، ولمحتُ عبدالحميد يغادر المكان، وقد اعترته موجة كآبة، في حين كنت ما أزال في مكاني، وكل من الأب والأم في مكانه، ليتني اصطحبت أحداً معي لكي يكسر، هذا الجمود، ولكن لا لا لا ، الحمدلله أني لم أصطحب أحداً، إن في الجلسة هذه من الأحاديث الحساسة ما لا تحتمل وجود أحد، لقد قالوا حتى أمل نفسها لا تعرف، ما هذا الجو المشحون بالقلق والأسرار.

- على العموم، لا تفكر ولا تشرد كثيراً، بإمكانك أن تقرأ التقرير مرة أخرى، ثم تفكر على هدوء، ولن يكون هناك إلا ما يتم التوافق عليه برضا الجميع، المهم ألا تنزعج من هذا، ولا تأخذك كثرة التفاسير، ولا تنس، نتمنى أن تتصرف بلباقة لكيلا تشعر البنت بهذا الكلام.

قال الأب ذلك، وقد زايله القلق، وسكنت لهجته التي كانت مضطربة، بيد أن الأم ما كانت على نفس حال الأب، وإنما لعلها دخلت فصلاً جديداً من الفرع والظنون.

- على كل، الآن صار وقت أغادر، ولنا حديث في وقت آخر.

قلت ذلك، ونهضت، فأيد الأب ما ذهبت إليه من قرار المغادرة في تلك اللحظة وكأنه كان يود أن يقترح عليَّ ذلك ربما رأفة بي، أو رأفة بهم وبالجميع. ولقد فقدتُ لباقتي، فلم أصافحهم عند خروجي، وكنت أنظر في هاتفي نظرات تافهة لا معنى لها، حين يشتد بنا الحرج تتركز أنظارنا في أشياء بلا معنى ونعجز عن التوقف عن ذلك، فتحتُ باب المجلس، وقبل أن انتعل حذائي، وصلت رسالة من أمل تقول فيها: أجي الآن جنبك؟

لكأني لم أر هذه الرسالة، شعرت كأن كلاماً لم يصلني، وكأن عيوني لم تقرأ مثل هذا الكلام، أو أنه هو والعدم سواء، وقد كانت مشاعري هذه التي تتصرف بي في ذلك التوقيت خارجة عن إرادتي، ولم أكن أنا المتصرف فيها، بل كانت قوة غيبية لا أعلم ماهي، وما كان بإمكاني إيقافها، أو تعديل أي سلوك تفرضه علي. خرجت من البيت، اجتزت الحوش، كان باب الحوش مغلقاً، فتحت المزلاج بصعوبة، لكأن قوتي قد تبخرت للحد الذي أعجز معه عن فتح مزلاج باب، ومشيت في الشارع.

وأكثر ما أضجرني في هذا كله عجزي عن مناقشة أي فكرة حتى مع نفسي، فإني في العادة حين يعتريني حزن ما، أخوض مع نفسي حوارات وأسئلة ونقاشات، وتدور بداخلي مئات الجمل، بل آلاف، أما في هذا الموقف، فقد حل بي الخرس، وكان خرساً في اللسان، وخرساً حتى في الشعور والتفكير.

وأنا في سيارة الأجرة عائداً نحو سكني، جاءت رسالة من أمل: كيف خرجت دون أن تشعرني، كنت أتأهب للدخول إلى عندكم. ما بالك خرجت هكذا فجأة.

قرأت الرسالة، وقمت بإغلاق الشاشة، ووضعت الهاتف، في جيبي.

- مالك يا أخي قول لا إله إلا الله.

باغتني صاحب التاكسي، فقلت: لا إله إلا الله.

- كأن عليك هموم الدنيا، مالك، يا رجال لابد ما تفرج.
- ربنا يفرجها على الجميع، شكراً يا صديقي، والمعذرة منك. المهم حاول تسرع.
- نسرع نسرع، ولا يهمك.

قال ذلك، ثم لاحظت تحسناً في مستوى السرعة، وقد كنت ممتناً له على ذلك. أريد أن أصل البيت لأرتمي؛ فإني بالكاد أحمل جسمي الآن، لو تأخر الأمر قليلاً سيصير جسمي عبئاً عليَّ.

هاتفي صامت كالعادة، بعد أن استلقيت في فراشي، أخذت الهاتف بنفس مسدودة عن الحياة، وجدت مكالمات فائتة من أمل، ومن عبدالحميد، ورسائل عديدة من أمل تحديداً وكلها تحمل لهجة متقاربة، لهجة الذي لا يعرف شيئاً.

" مالك خرجت هكذا فجأة، ووو رياض، الوو، لو سمحت رد أو اتصل بي، رياض، يا ولد منصور، عودك رنان، أمانة ليش خرجت، هل هذا اختبار لأعصابي، الله المستعان، أقلقتني والله، إن بطني الآن تتقطع من الهلع، أشعر بصعوبة في التنفس، رد يا رياض رد"

رأيت هذا الكم من الرسائل، فحزنت لهذا القلق الذي تركته يتمدد في نفسها حتى استفحل دون أن أجد القدرة على إيقافه. قل شيئاً طمئنها. لا أحد يقدر على طمأنتها الآن سواك، هيا، اعمل شيئا لله.

- عفواً أمل، أنا تعبت فجأة فاضطررت أروح، إن شاء الله أكلمك في وقت آخر.
- سلامات من أيش تعبت؛ لكن كيف حدث ذلك، والجو كان تمام.
- لا تشغلي بالك، أنا بخير.

(عبدالحميد)

جاءت وقد تلبستها سحنة غريبة، يتطاير الغضب شررا من عينيها، وصوتها يغلب عليه الشهيق المتقطع، وذقنها مرتجف، كل شيء مندفع فيها، لا أحد يستطيع إيقافها، كنت قد عدت للمجلس لأخذ هاتفي، في حين لا يزال أبي وأمي في ذات المكان. دفعتْ أمل الباب بقوة، وهتفت فينا: ممكن أعرف أيش الذي حصل في الدقائق الماضية؟ لماذا غادر رياض بهذه الطريقة الغامضة، ماذا قلتم له، هل أغضبه أحد منكم، أم أغضبكم هو في شيء؟

- لا أغضبنا ولا أغضبناه، لا يوجد ما يدعو للقلق، سيتواصل بك هو.

هكذا رد عليها أبي، محاولاً تهدئتها، فيما كان واضحاً أنها لن تجنح للهدوء. قالت بلهجة واثقة:

- بل يوجد، اتركوا هذه اللهجة الغامضة التي ترهق الروح.
- اسمعي كلام أبوك يا بنتي، خلاص.

كانت هذه مداخلة أمي، في محاولة لتكون محضر خير، لعل أمل تنزل عند خاطر أمها، ولكن هيهات، نظرت نحوي، وقالت:

- وأنت ألن تقول شيء.

ونظرتُ إلى أبوي، فرأيت فيهما أمارات التحذير والتوسل بعدم قول أي شيء، فزادا من ارتباكي، على أني كنت قد انتويت أن أصارحها؛ لكني عدلت عن ذلك خشية الوقوع في مشكلة أخرى مع والدي، فأخذت أمل من كتفها لأمضى بها نحو الصالة ثم نحو غرفتها؛ لكنها رفضت مبادرتي وأبعدتني جانباً بحركة من يدها، وهتفت وقد كان واضح أنها قد وصلت إلى مرحلة اللاعودة: لن أخرج من هنا، قبل أن تقولوا الحقيقة، وإياكم أن تكذبوا علي، فإني أعرف متى تكونوا صادقين ومتى تكونوا كاذبين، هيا تكلموا، تكلّموا تكلموا قبل أن أعمل لكم مصيبة اليوم.

حين قالت تلك الكلمات كان صوتها قد أخذ لحنا حزيناً مخيفاً ما كان ينفع معه أن يتم الاستمرار في التحفظ والكتمان، وإن عدم الإفصاح في ذلك المقام ما هو إلا مزيداً من التجني والقسوة التي لا ينبغي علينا السماح بها فضلا عن المشاركة فيها، لقد أحزنني أن أرى أمل على هذا الحال، وهي أختي المرحة دوماً، كان شكلها مناقضاً تماما لشخصيتها وطبعها، بل ولحياتها وتاريخها الباسم، لا يصح ترك الشعلة تحترق وحدها، هتفت في أبي وأمي صائحاً: يجب أن تقولوا لها، لا داعي للكتمان، ليست طفلة حتى تعاملوها هذه المعاملة، إنها امرأة تعرف مصلحتها، هذا الأسلوب خطأ.

نظر أبي نحوي وقد فغر فاه، ثم أطرق رأسه، ملياً، وراح يتحسس التقرير، متردداً هل يفاجئها بأن في هذه الورقة إجابة على كل أسئلتها، هل يناولها أم يحدثها حديثاً، ولكن من أين يبتدئ الحكاية، وهو الذي تعب من التمهيد عندما فاتح رياض بذات الموضوع، هل سيعيد كل تلك المقدمات، هل هل، وفجأة أخذ التقرير وسلمه لها.

فراحت تلتهمه بعيونها الوجلة المتقدة، ذاهلة عما تقرأه، وكلما مضت في سطر، اتسعت عيناها، وتدلت شفاهها، وارتفع إيقاع تنفسها، رفعتْ أنظارها عن الورقة، وزعت نظراتها بيننا كأنها غير مستوعبة ما قرأت، ثم وكأنها أرادت أن تتكلم بشيء أو تصرخ؛ ولكنها سقطت أرضاً مغشياً عليها.

هرعنا لنجدتها، وهرع من في البيت، فصحت بهم: كل واحد على غرفته.

حملناها إلى غرفتها، وضعناها على سريرها، وتجمعنا حولها، ونضحناها بالماء، إلى أن فاقت: هاتوا التقرير.

كانت هذه أول جملة قالتها عقب الغيبوبة، فرد عليها والدي: تمام التقرير موجود، ليس وقته الآن، هدئي من روعك. مالك يا بنتي.

-هاتوا التقرير.

- قولي يا الله، وبطلي الجنان.

صرخت أمي، في محاولة من الأم لتذكير بنتها أن تصرفاتها فوق مقبولة، وأن من واجب الأم تنبيهها.

قال أبي:

- لا تزعلي يا بنتي، إذا ما فيه نصيب، خلاص، أو قامت القيامة.

رمقته أمل بنظرة أقل ما يقال عنها أنها نظرة ازدراء، وإني لأذكر جيداً أن أمل لم ترمق لا أباها ولا أحداً منا في حياتها كما فعلت الآن، نحن نخسر كثيراً يبدو أن هذا الحادث سيهز السكينة في بيتنا. إن مثل هذه النظرة لو رأتها أمل تصدر مني تجاه والدي في الأيام العادية فلن تقنع بما دون قتلي غيرة على أبيها، إنها تجله كل الإجلال، وتحبه أعظم الحب، ولا ترفض له طلباً، ولا يثني عليها أمراً. هكذا أعرفها، ألا إن الحزن قد بلغ منتهاه، ماذا في عيونك يا أمل، بل ماذا في أعماقك، ليتني أستطيع تسكين هذه العواصف داخلك، ليتني أستطيع التخفيف عنك. ارفعي عن والدي هذه النظرات، إنها حرائق، لا تلتهميه هكذا أرجوك. صاحت به:

- أنت لا تعرف شيئاً، أنت لا تعرف شيئاً، تتحدث عن النصيب، أي نصيب.
- ماذا نقول يا بنتي، اهدأي ولن يكون إلا كل خير.
- كيف سمحتم لضمائركم بأن تخفوا الأمر عني وأنا صاحبة الشأن، أين وضعتم عقولكم.
- ما أردنا جرحك.
- أردتم قتلي.
- قولي أعوذ بالله من الشيطان.
- أعوذ بالله من سذاجتكم، ومن غباءكم.
- سامحك الله يا بنتي، سهل، المهم الآن أن ترتاحي، وحينما يزول عنك الغضب ستدركين أن الأمور بسيطة.
- لا أعرف من أين تأتون بهذا التفاؤل، اتركوني لحالي أرجوكم. ابق هنا يا عبدالحميد، وهم يخرجوا.

(رياض)

ويل للإنسان من داء الظنون، ويل له من معركة الهواجس والاحتمالات، ويل له من حرب بينه وبين نفسه، وويل لرياض من عجزه عن التفكير المنصف، ويل له مما ينهش في روحه، ويل له من مصير لا يعرف اتجاهه، معضلة من ذلك النوع الذي لا تجد صديقا تستشيره فيها، لا تجد من يقول لك اعمل كذا وكذا، بعد أن تعطلت قواك العقلية، ومتى ستستعيد النفس قوتها لتتخذ خطوة صحيحة، بعد كل هذا الصمت، حتى أمل توقفت عن مراسلتي، لعلهم بلغوها، لعلها عرفت الحقيقة، ماذا كانت آخر رسالة منها، وفتحت هاتفي، يوجد رسالة لم أطلع عليها هي آخر رسالة منها، ماذا كتبت فيها، آه لقد بلغها الخبر، ماذا كتبت رسالة، لا ليست رسالة بل رصاصة، تقول عن نفسها إنها لا تستحق الحياة، ومن لا يستحق الحياة لا يستحق الحب، وتطلب مني أن أسامحها، ولكن مهلاً من قالك أنك لا تستحقين الحياة، مسكينة، أين كان هذا كله مختبئ لنا، لقد كنا طيبين كلانا، من أين أتى الذنب من أين هطل علينا كل هذا الألم، إني لأشتم رائحة الظلم، وإن ما يقلقني أني أشعر بأن كل ما يجري ليس فيه ذرة منطق، كل سلوك لي في هذه الآونة يبدو خارجاً عني، كلماتي التي كتبها، كلماتي التي لا أقولها، عجزي عن التصرف، وتصرفي إن جادت به قواي المنهزمة، كل ذلك عبث في عبث.

وأطلب من عبدالحميد صورة من التقرير، ولماذا، وأتوسل إليه ألا تشعر أمل بذلك، فإذا بأمل ترسل لي صورة التقرير عبر واتساب من هاتفها، ويلاه، أردته من عبدالحميد لا منها، لقد أرسلتْه لكي تشعرني أن الموضوع بين يديها، ولكي تقول لي إنها تتابع خطواتي، ما كان يجدر بي أن أطلبه، لكن الفضول والظنون كانا يدفعاني دفعاً؛ كأني أريد إعادة قراءته فقط، خمسين مرة، بل مئة، وماذا بعد، ها قد أرسلته هي، كأنها تقول الكرة في ملعبك فماذا أنت فاعل يا رياض؟

كل ما أقوم به في اعتقادي أنه خارج إرادتي، وأخذتُ صورة التقرير وذهبتُ أبحث عن عيادة الدكتور التي صدر عنها هذا التقرير، فترة طويلة مرت، قرابة أربعة وعشرين عاماً، دكتور محمد أحمد النزيلي، وذهبتُ أبحث عن العيادة، لعلي أجد

الدكتور الذي أعد التقرير، لا أعرف ما الذي أقوم به؛ لكنها قوى غيبية تدفعني، هل يلتمس لي أحد العذر، هل تتفهمي سلوكي يا أمل، على أني أتمنى أن لا تعرفي بهذه التحريات الميتة التي أقوم بها، والتي أدرك أنها لن تعود علي بشيء، وقالوا لي بأن العيادة قد انتقلت إلى برج الأطباء في الزبيري، وذهبتُ إلى هناك، وانتظرت حتى غادر جميع المرضى، وأنا أرمق السكرتاريا، شاب يرتدي فنيلة بيضاء نصف كم. قال: هل تريد معاينة أسجلك الآن. وأجبته أن ينتهي من جميع الزبائن وسانتظره حتى آخر الوقت، وتعجب من طلبي، وانتظرته، وحين صرنا بمفردنا قلت له: أريد أن أتأكد من صحة تقرير طبي صدر عن عيادتكم؟ فأجابني: وأين هو هذا التقرير. أطلعته على صورة التقرير في الواتساب، وقبل أن يقرأه لمح تاريخه فسخر مني، بيد أني قلت بلهجة مؤثرة: ما جئت لك بعد هذا التاريخ إلا لأهمية بالغة فلا تضحك أرجوك. فأدرك أن وراء مجيئي ألم طافح، قال: ليس من صلاحيتي فتح الأرشيف خصوصاً في ظل سفر الدكتور، الدكتور مسافر في مصر لديه مؤتمر طبي. وسألته: هل أستطيع الاتصال به؟ وتعجب من طلبي، فالأمر سيكون مخسراً وسعر المكالمة الدولية يبهض الجيوب، فرجوته أن يعطيني رقماً للدكتور، وألا يقلق بشأن الفاتورة، فإني سأدفع ما يقوله، وحاولنا الاتصال بالدكتور من العيادة فلم يجب، إن ما أقوم به من تحريات ما هي إلا خيانة لك يا أمل، هناك صوت في ضميري يقول لي ذلك، ولكن من يرحمني من الظنون، من ينتشلني من داء الوسواس، من يبث الطمأنينة في قلبي، من يعيد الثبات إلى فكري، من ترى ظلمك يا أمل، أنا أم أبوك وأمك، أم أنت؟ من نغص فرحتنا؟ من حوّل الثقة إلى ظنون مقيتة، وهواجس قميئة، وأخذتُ الرقم وتابعتُ الدكتور في وقت لاحق، لم يجبني على واتساب في بادئ الأمر، فأكثرت من الاتصال الهاتفي، ولعله شعر أن هناك أمراً هاماً فرد على الواتساب ثم على المكالمة:

- أعتقد أن هذا التقرير صحيح.
- بمعنى أن ما ذكر فيه هو ما تم فعلاً على الواقع.
- حين أقول لك التقرير صحيح فهذا يعني، أنني أؤكد ما ورد في التقرير.
- ولكن هل تتذكر هذه الحادثة يا دكتور، أو لنقل هل تتذكر هذا التقرير وهذه الحالة تحديداً.
- نعم أتذكرهم.

- شكراً دكتور، وهل بالإمكان أن أطلع على صورة التقرير في الأرشيف لديكم.
- نعم بالإمكان ذلك، سأبلغهم في العيادة ليتيحوا لك الاطلاع، الاطلاع فقط، لا يحق لك حتى أن تأخذ صورة.
- وهو كذلك، شكراً دكتور.

وإن للظلم رائحة، وللظنون عنفوان، وإن الحزن يعمي القلب، ويجمد البصيرة، كلام الدكتور واضح، ثم صوت قلبك أنت واضح وشجاع، يقول لك إن الأمر لا يحتمل شيئاً مما تسلل إلى عقلك من وسواس، فما بالك لا تسمعه، وأنت الذي تسمعه دائماً، وها أنت تأكدت من التقرير، وانظر إلى هذه التواريخ القديمة، ١٩٩٤/٩/١٣م، وانظر إلى بساطة التنسيق والتصميم في نموذج التقرير، وانظر إلى الاسم الرباعي لهذه المسكينة كيف أنه مصلوباً على هذه الورقة، ولكنه قد كان اسماً حراً، فمن عاد لصلبه، أنت من صلبته مجدداً يا رياض، فهل اكتفيت، ها أنت تأكدت من صحة التقرير، فكيف ستتأكد من عملية لبنان، ولكن هل ما يزال في نفسك شيئاً؟ أبعد كل هذا ما تزال الظنون قائمة؟ لا، لكنه العجز عن طردها، فما علاجك، وما الذي سيعيد لك ثقتك، كم المرات التي يموتها الإنسان حين تهتز الثقة، لماذا تتذكر لبنان، أما يكفي صدق العم خالد، أما يكفي براءتهم في إبلاغك بالموضوع، ولو كانوا غير ذلك، ما كان بإمكانك معرفة شيء، لقد أرادوك ابنا لهم، وتعاملوا معك بالصدق، ولكنك واحد من مجتمع مريض، لا يحب الصدق، هل أنت كذلك يا رياض، أم أن ليس لك ذنب حقيقي، ومن هذا الذي كان سيتقبل أمراً كهذا، وإن أي رجل في موقعك لن يسعه إلا أن يفعل ما فعلت، وربما فعل أكثر، ما أنت إلا رجل من مجتمعك؛ بيد أن هذا هو المجتمع نفسه الذي تمهره بدراسات عميقة، هذا المجتمع الذي أردت أن تغير فيه بعض الثقافات المغلوطة، غيرها في نفسك قبل أن تغيرها في غيرك. اقس على نفسك يا رياض، اقس عليها، ابك وانتحب، وعض الأصابع، اسكر بحزنك، وتدثر بألمك، وسر على وجهك هائماً، ابحث عن الحقيقة حيث شئت، فتش عنها في كل ناحية، هيهات أن تجدها، لن تصل لشيء، لا يوجد شيء اسمه الحقيقة أصلاً، لا يوجد سوى ما يحسه القلب، تلك هي الحقيقة الكاملة والوحيدة.

***

بعد خمسة أيام زُرتُها، وأشاروا عليَّ بالدخول إلى غرفتها، وجدتُها على السرير، وكان يبدو أن السرير قد تعرض لتغيير مؤخرا في موقعه، بحيث صار محاذي للشباك، فكانت جالسة ممدودة القدمين خلفها مجموعة وسائد، الشباك على يمنيها تنظر نحو الخارج باستمرار، وبطانية تغطي أرجلها إلى جذعها، كانت تربط رأسها بخيط قماش أسود فوق الطرحة الأصلية البيضاء، وترتدي فنيلة بجامة تغطي العنق والذراعين لونها وردي .

وقد كان لون البجامة يناقض ما عليه وجهها من كدر وكمد، تأملت وجهها فرأيت أن بياض بشرتها قد تحول إلى كدر شامل، صارت بشرتها قمحية مصفرة، جلستُ على حافة السرير، وأنشأت أتحدث إليها:

-وماذا بعد ألن تخرجي من هذه الحالة؟

لم تجبني، فأخذتُ أبحث عن كلمات تكسر الجمود، أفكر في كلمة ثم أتراجع عنها لأبدلها بأخرى .

-نحن قلقون عليك، وما الداعي لهذا كله؟

نظرت نحوي للمرة الأولى وقد راعتني ملامحها، أدامت النظر بصمت ثم قالت: اتركني وشأني .

-ارحمي نفسك، أو على الأقل ارحمي أبوك وامك، إنهما يتعذبان لرؤيتك على هذه الحال .

قالت وقد أخذت لهجتها تنحو إلى النقاش:

-لا أحد يتعذب سواي .

-معك حق؛ لكننا جميعا نتعذب، ولا أظن هذا يخفى عليك .

لم تعلّق، فعاد الحوار للانسداد من جديد، لا أريد لها أن تسكت، يجب أن تستمر بالحديث بأي ثمن .

-قولي لي ما الذي يرضيك وأنا أقوم به .

-أن تتركني لأحزاني .

-أنتِ أمل القوية .

-كانت قوية يوم كان لها حلم .

-وما تزال وما يزال الحلم .

فعادت للسكوت:

-أمل إن ما يصيبك يصيبني، إني أحبك يا أمل وأنت تعرفين ذلك .

-كذاب. أنت لم تحب إلا نفسك، أنت أناني يا رياض، أنت أناني، هل تعرف ذلك .

-لا أعرف إلا إني أحبك .

-لا أريد حبك.

-لكني أريده .

-لم تثق بي، اهتزت ثقتك بي من أول موقف، لم يؤلمني في الأمر كله إلا فقدانك الثقة بي .

-لا يوجد شيء مما تتوهمين .

-لا يوجد شيء مما تحاول تصويره .

-أمل .

-بلا أمل بلا زفت، اتركني لو سمحت .

-حاضر. سأتركك الآن لترتاحي؛ لكن ليس معنى ذلك أني أوافقك على ما طرحتيه، لنا حديث آخر .

-غلَّق الباب معك .

تجرع شجاعة محبوبتك، قوية في الفرح قوية في الحزن، كريمة في الوداد عنيدة في الخصومة، جنة إذا ابتسمتْ، وجحيم إن عبستْ. ويل لك من غضبة المحب الصادق، ويل لك من مظلومية الشجعان .

هل أحزنني طردي على هذا النحو؟ لا. إنما أحزنني حالها، أحزنني هذا التبدل المريع الذي آلت إليه، أهذه أمل؟ أهذه أمل الملحاحة المرقّسة، من أين خرج لها هذا الخصام الناشف.

تقول إني لم أحبها، قالتها من لسانها لا من قلبها، إنها تعرف أني أحبها من صميمي؛ لكنه جرح الكرامة حين ينزف فلا شيء يوقفه، إني أفهم هذا الذي بك يا أمل، فلن أصدّقك، حتى لو طردتِني ألف مرة .

وقال أبوها ليقطع صمتي وشرودي :

-أتمنى أن لا تأخذ في خاطرك، من سلوكها القاسي معك .

فأجبت بكل يقين :

-حتى لو رجمتني بالحذاء فلن أزعل منها، إني أعرف ما بها .

فقال بامتنان: شكراً يا ابني. أسأل الله أن يصلح شأنكما .

(أمل)

أين هي العدالة يا إلهي، لماذا قيدتنا وأطلقتهم، أهو قانون الطبيعة؟ إن كان كذلك فهل ثمة استثناءات؟ كيف نصنع بحالتي، دلنا يا دليل، من يتحمل مسؤولية الظلم، من يتحمل مسؤولية المصادفات السخيفة هذه، ماذا أفعل بنفسي، من أعاتب ومن ألوم، هل قُضي علي إلى الأبد، لا أحد من البشر لديه كرم الإله لينقذني، أأنتظر أحداً؟ من ومتى وأين، إنني منكسرة ومنهارة، وإن مشكلتي مما تعجز عن حلها شهامة الرجال، بل إن الشهامة في هذا النوع من الورطات لا تزيدها إلا تعقيداً.

وهذا الباحث الاجتماعي، تحدث وأسهب، وأراد تغيير مجتمعه، وحمل نفسه هموم مجتمع بأكمله؛ ولكنه عجز عن حمل هم إنسان واحد، فشل في أول اختبار، تبخرت نظرياته ومثاليته، تحطمتْ عند تجربة واحدة لفرد واحد من المجتمع الذي درسه، من المجتمع الذي يريد تتغير ثقافته، ما هو إلا رجل من قومه.

ولو أن الأمر مقتصراً على الفرد وحده ربما قدم تنازلات وتغاضى عن أشياء جسيمة من أجل خاطر من يحب، ولكن أين هذا الفرد المستقل؟ أين من لا يخشى الغطاء المجتمعي، أين من يقول هذا خياري وهذا شأني، لكم دينكم ولي دين؟ هل هناك أحد بهذه الشجاعة؟ لا. لا يوجد. الشخصية الفردية مسحوقة منعدمة، الفرد لا شيء، لا يوجد في مجتمعي سوى الشخصية الجمعية التي تقرر باسم الجميع، وتحاسب باسم الجميع، وتخلق ضميراً جمعياً لا يقبل حتى الاستثناءات، أما الفرد فهو أكذوبة. وما حزنك هذا إلا أصدق دليل على ذلك، فإن كنتِ قادرة على التحلي بالشعور الفردي، فلماذا تخشين المجتمع، لماذا أنتِ مكتئبة الساعة، لماذا اعتزلتِ، لماذا قامت قيامتك، أليس هذا هو العقل الجمعي، أليس حزنك إلا بسبب كلام الناس، وما سيقوله الناس، فهل أنت قادرة على الإيمان بفرديتك، واستقلال شخصيتك، ورضاءك عن قناعاتك مهما كانت غرابتها؟!

سيقولون لك: ليس للمرأة إلا الزواج، فماذا أنتِ فاعلة، وكيف سيتم إخراج هذه الدراما؟

تلومين من حولك، لأنهم أساءوا التصرف، ماذا كنتِ فاعلة لو كنتِ مكانهم، هيا، تصرفي، أرينا قدرتك، هبي أن الموضوع بيدك من مرحلة الصفر، كيف ستكون وسيلتك الناجحة، هل ستتمكنين من إخراج الرواية على أكمل وجه، بحيث لا تُترك ثغرة؟ وهبي أن ثغرة بقيت، وفاتك تلافيها، هل ستقضين حياتك بعدها رهن الشفقة واللمز، تحسبين كل صيحة عليكِ، تتوقعين التطرق لقصتك ومشكلتك في كل وقت وحين من الليل والنهار، أي قوة ستحتاجينها للمقاومة والتعايش؟ أحقاً سيكون هناك تعايش؟!

***

(رياض)

عدتُ لها بعد أسبوع كانت ما تزال بنفس الجلسة، لم يتبدل سوى البجامة، ترتدي بدلاً منها قميصا أبيضاً، وصار معدل كلامها هذه المرة أقل من المرة السابقة، تحدثت كثيراً، وأنصتتْ بلا تركيز ولا حماس، حاولتُ إنعاش ذاكرتها بذكريات جميلة قصصتها عليها، ذكرتُها بمشاكساتها لي، ذكرتها بالروب نصف الكم، ذكرتها بفرحتي يوم صرت حراً ، وكيف أن الأمر أتاح لي الحرية الكاملة لحبها، ذكرتها بالرسائل التي تبادلناها وأنا قادم إلى بيتهم، ذكرتها بأشياء أخرى كانت بيننا ونعرف قيمتها الروحية والعاطفية لكلينا، كانت تستمع لاهية شاردة، كأن الكلام لا يعنيها، وكأنه لا يحرك فيها ساكناً، حاولت جرها إلى أي حوار مهما كان تافهاً، بيد أنها كانت مقفلة المزاج، غير مهتمة بشيء، ولم نخرج من اللقاء بشيء ذي قيمة. وأتتْ لحظة خروجي من غرفتها، وحين وضعتُ يدي على المغلقة لأفتح الباب نادتني: رياض .

وجب قلبي فرحاً، ها قد نزلت رحمة ربي، التفتُ نحوها لأراها تنظر نحوي بانكسار اليائسين، قلت: نعم يا أمل . فقالت بانكسار لم أر مثله في حياتي:

-الله لا سامحك يا رياض.

كسرتْ ظهري إلى الأبد، كسرته، محال أن أرى عافية بعد هذا الألم .

ويلي مما قالته، بل ويلي من تلك النظرة التي قالتها خلالها. لن تتسعك أرض، أيها المذنب الذي لا يعرف ذنبه .

**

أبات والكآبة قابضة قلبي، بيني وبين النوم برزخ طويل، وأظل هكذا حتى أتذكر أني لم أقم بوردي اليومي، لم أبك بعد، فأفتح واحدة من الأغاني ذات الشجن الهائل، إذ لا تنفع الأغاني المرحة عند الانتكاسات، وقد جربت أن استمع "عودك رنان" فبدت لمسامعي نشازاً؛ كأنها نعيق، وإذن فالحل في أغاني الشجن، هي القادرة على مؤازرة

النفس ومشاركتها شعور الانكسار، فأفتحها وأكررها، أفاقم من خلالها الحزن، واستدر بها الدموع. من الرحمة أن يتظافر شجن الأغنيات مع كآبة الصدر وألم التفكير، لكي نصل للحظة التنفيس المنقذة من الهلاك، الدموع علاج.

ويأتي الصباح فكأني ذاهب إلى المجهول، وتمر الأيام ثقيلة طويلة، لا طعم فيها لشيء، كأن الأشياء قد فقدت معانيها، وكأني قد فقدت القدرة على التفاعل مع كل ما حولي، ليس ثمة خسارة أبشع من خسارة الشغف بالحياة والأشياء، حتى الجلوس مع الأصدقاء في المقيل لتناول القات، صار جرعة ثقيلة من الضجر، سرعان ما أفر منها إلى المشي في الشوارع، اترك قاتي بينهم، وأخرج للمشي بلا غاية سوى المشي ذاته، أجد فيه متنفساً من حالة الشتات التي تنهش روحي وتبلبل فكري، لا أعود إليهم إلا قبل المغرب. يسألونني دون أن ينظروا نحوي سؤال معاتبين لا باحثين عن جواب: أين ذهبت؟ فلا أجيب، وأجلس في مكاني تأهبا للمغادرة عند أذان المغرب.

وأخلد إلى نفسي وأفتح كتاباً أقرأ فيه، يجب أن أواصل القراءة في "الحرب والسلم"، ما تزال ورقة القات في الصفحة ٤٢١ من الجزء الثالث، حيث توقفتُ آخر مرة، الفصل التاسع عشر "نابليون على مشارف موسكو"، عنوان مثير ولا ريب يشجع على القراءة، وأقرأ السطور شارد الفكر، تتناولني صور وأخيلة لا تنتمي لما أقرأ، ولا أدرك بشرودي إلا عندما أصل لنهاية الصفحة، حين يفترض أن أنتقل للصفحة التالية، ولكن ماذا فهمت من الصفحة السابقة؟ لا شيء. وأعيد قراءة بعض السطور لاختبر إن كنت فهمت شيئا أم لا، فكأني أراها للمرة الأولى، يا إلهي كيف مررتُ بكل هذا الكلام ولم أستوعبه، الآن سأستوعبه، وأقصد التركيز، وماهي إلا جملة أو جملتين أتمسك خلالها بتركيزي حتى يفلت مني من جديد. ويتكرر هذا مرات، فأدرك أن القراءة بهذه النفسية ماهي إلا ضرب من العبث، بل إنها تكشف إلى أي حد صار ذهني مشوشاً ومضطرباً، أضع الكتاب جانباً، وأقنع نفسي أن عملاً يدوياً من ذلك الذي يحتاج إلى قليل جهد من التركيز وكثير خطوات عملية يعد أفضل من نشاط القراءة لمثل شخص في حالتي النفسية هذه، وآخذ مسودة البحث لأفرغ التعديلات والملاحظات التي أنجزها عبدالحميد ، أفرغها من الملزمة إلى المستند على الكمبيوتر، وأبدأ بتتبع التعديلات التي تلمع باللون الأحمر على ورق المسودة، وسرعان ما أتذكر

أن هذه المسودة كانت بين يديها يوماً، وهذا خط عبدالحميد شقيقها، يقودني إلى ذكراها ولا ريب، كل الطرق تؤدي إليها، فتعاودني الكآبة، وسرعان ما أشعر بملل رهيب، يتحول إلى عجز ورفض لمواصلة هذا العمل، بل إنه يأخذني العجب كيف قررتُ القيام بمثل هذا العمل الآن، إنه كالقراءة فيما يتطلبه من تركيز، وأشرع في عمل يدوي كغسل الثياب، أو تنظيف الغرفة، وتكون تلك الأعمال مسرحاً لشرود لا يقل حدة عنه في غيره من الأعمال، ولكنه أيسر على النفس المتعبة.

(عبدالحميد)

واعتزلتْ أمل في غرفتها، لا تطيق الجلوس مع أحد، كأنها قد استقالت من الحياة، من يصدق أن هذه أمل، تلك القوية الشجاعة، من يصدق أنها صارت على هذا النحو من الهشاشة، جُرِحتْ كرامتُها على حين غفلة، سُقِط في يدها، فكفرت بكل من حولها، لعلها كانت تطمح لعلاقة متكافئة، لا تتقبل الشفقة من أحد، من يعيد الكرامات المجروحة؟

وكنتُ كل يوم أطرق باب غر فتها وأنا في فم الخوف من أن تكون قد شنقتْ نفسها، فكل الاحتمالات السوداوية واردة بالنسبة لإنسان في حالتها. وتقول لي بعتب المجروح: طالما حدثتَني عن صديقك بأجمل الأوصاف، ذكرتَ جوانبه الجميلة، مدحته بكل الأساليب وأسرفتَ في وصف جوانبه الإيجابية، ولكنك لم تقل لي أنه جبان.

وكنت أعلم أن هذه لهجة الموجوع الذي لا يدري على من يلقي باللائمة، وإن المجروح ليقول كلاماً، حتى لو كان غير مؤمن به، ولكنه يقوله في حالة من هستيريا الكرامة المحروقة، أعلم ذلك، وأعلم أن حالة أمل ربما أصعب من ذلك؛ فأصمتُ إجلالا لحزنها الذي استبد بها وبدّل شخصيتها .

وتسألُ أبي وأمي للمرة المئة: لماذا لم تخبروني؟ فيجيبوا: كنا نقول لأنفسنا سنخبرك عندما تكبرين، ثم كبرتِ فجأة، ولم نستطع الاقتناع أنه قد حان الوقت لأخبارك، ثم اعتقدنا أن المشكلة لم تعد قائمة على الأقل تجاهك أنتِ، وأنه لم يعد ثمة داعي لإخبارك، ثم دخل رياض في خط حياتك فجأة، وكنا مطمئنين إلى ناحيته .

فتقول وقد زادها جوابهم انكساراً ويأساً: ليكن في علمكم أني لو مت الآن فسأموت وأنا غير راضية عنكم.

تقول ذلك فينتحب قلب أبي ألماً، قبل أن يفر إلى غرفته لينتحب كما يحلو له .

وكان واضحا أنها قد قررتْ أن تعيش عزباء إلى الأبد، واقترحنا أن يلتقيا من جديد أو يزورنا رياض، ويستخدم لباقته لعله يقنعها، فجاء ولقيها، ولم يلق ترحيباً، لقد كان كل شيء خارجاً عن إرادتها، وكان هذا يؤلمنا جميعا .

وأما رياض فشاردٌ طوال الوقت، هائم بلا وجهة معلومة، عاجز عن الإمساك بشيء أو التركيز في شيء، وتراجعتْ قواه الذهنية والبدنية في العمل بشكل مريع، فكنتُ أحاول قدر الإمكان تغطية بعض واجباته، وكلما نظرتُ إليه قرأتُ في وجهه وجعاً معذبا، إنه دائم التفكير، وإن التفكير على هذا النحو يقتات من روحه، ، كنتُ اجتهد وأقول له كاذباً إن حالتها تتحسن يوما بعد يوم، فكان يعجز عن الفرح، كأنه يدرك في قرارة نفسه أن هذا غير صحيح، وأنها مسحوقة، ولو قد تحسن حالها لتحسن حالُهُ هو تلقائيا دونما حاجة لمرسال، إن أرواح الأحبة تتواصل في الغياب وتتشارك الفرح والحزن والقلق .

وأظن أن ما منعهما من الموت كلاهما هو أن ثمة أمل بقي يراودهما في تحسن نفسيتهما مستقبلا، غير أن تلك اللحظة لم تأت، وذلك التحسن لم يتحقق. وعشتُ أنا مُعذَّباً بين ضياع الحبيبين، أشاهد كل يوم قلبَي صديقين - حبيبين مزقهما الحزن، ودوخهما الذهول.

تمت؛؛؛

صنعاء

٢٠٢٢/١٢/١٢م